حروف التقوى

شرحٌ موضوعيٌ مبسَّط لِموعِظَةِ أَميرِ المؤمنين عليه السلام في صِفَاتِ المتَّقين

السيد محمد علي العلوي

حروف التقوى

شرحٌ موضوعيٌ مبسَّط لِموعِظَةِ أَميرِ المؤمِنين عليه السلام في صِفَاتِ المتَّقين

حروف التقوى

شرحٌ موضوعيٌ مبسَّط لِموعِظَةِ أَميرِ المؤمنين عليه السلام في صِفَاتِ المتَّقين

السيد محمد علي العلوي

الطبعة الأولـى

١٤٣١ هـ/ ٢٠١٠ م

هوية الكتاب:

❁ الكتاب: حروف التقوى

❁ المؤلف: السيد محمد علي العلوي

❁ الطبعة الأولى: ١٤٣١ هـ/ ٢٠١٠ م

❁ تصميم وإخراج: البروج ميديا

❁ هاتف: +٩٧٣ ١٧ ٦٩٤٢٧١

❁ نقال: +٩٧٣ ٣٦٦١١٨٦٥

❁ البريد الإلكتروني: info@albrooj.net

❁ الموقع الإلكتروني: www.albrooj.net

اللهم عجّل لوليك الفرج...

هو دعاؤنا ليلاً و نهاراً..

هو دعاؤنا ولا أدري إن كنا نستحق الإستجابة من الله تعالى..

هل يستجاب لنا ونحن في هذا الحال من الضعف والهوان؟

هل يظهر قائدنا ونحن في شغل عنه بملذات الدنيا؟

هل ينتصر لنا الله تعالى بولي أمره والحال أننا نقاتل بعضنا البعض؟

لا ادري!!

ولكنني أدري بأن الطريق لك يا مولاي طريقٌ واحد لا ثانيَ له..

أدري بأن الفرج فيه .. والخلاص فيه .. والمخرج به إن شاء الله تعالى

إنه طريق التقوى الذي جعله الله تبارك ذكره أمام دولتك الأبية..

نسأل الله العلي القدير أن يفرج عنا بظهور القائم المنتظر (أرواحنا فداه)

سيدي يا أبا صالح..

تقبل مني هذا القليل في يوم ذكرى استشهاد جدك الهادي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، واقبلني خادماً لخدامك يوم ترفرف راية الحق على رؤوس الأشهاد

محمد

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين الحبيب المصطفى وآله الطيبين الطاهرين، واللعن الدائم المؤبد على أعدائهم إلى قيام يوم الدين.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .[1]

عندما نترك أمر تدبر هذه الآية المباركة للوجدان، فإننا نرى بعين القلب تلك القوة البلاغية الثاقبة التي اختزلت كل الحقائق المستهدفة من قِبل الإنسان الواعي بين أنوار ألفاظها تحت عنوانين اثنين، أولهما التقوى وثانيهما الإيمان لتأتي النتيجة التي وعد الله بها، وهي:

كفلين من رحمته، نوراً، و مغفرةً منه سبحانه وتعالى .....

ولعمري ماذا يطلب العاقل أكثر من هذه النعمة العظيمة؟

بتدقيقٍ بسيط في قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ﴾ يتجلى لنا الحل الأمثل والأوحد لكل مشكلة تعترضنا في مسيرة الحياة الدنيوية، فالنور من عادته أن يكشف للبصر عن كل مقدور له فيكون المسير بهدىً وعلى هدىً ..

وهكذا هي نتيجة التقوى...

من هنا عقدتُ العزم على البحث عن معنى التقوى والسبل المؤدية إليها، فكان أمامي ذلك الطود البلاغي الشامخ لسيد البلغاء وإمام الفصحاء الإمام المرتضى علي بن أبي طالب عليه السلام، فتناولت بكل خجل وتصاغر أمام عظمة الأمير عليه السلام الموعظة المسلسلة برقم ١٩٣ من كتاب نهج البلاغة، محاولاً الكشف عن الشيء البسيط والبسيط جداً من مكنوناتها وكنوزها التي لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى ومن اصطفاهم من أنبياء وأوصياء (على نبينا وآله وعليهم أفضل الله والسلام)، سائلاً الباري تبارك وتعالى أن يفتح بصيرتي، وينير قلبي بضياء الإيمان والثبات على ولاية سيد الأنام وآله الأطهار صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

محمد علي العلوي

الثاني عشر من محرم الحرام ١٤٢٥هجرية

أعدتُ مراجعته وتنقيحه وإعداده للطباعة في الثاني من شعبان ١٤٣١هـ

برجاء أن يكون بين أيادي المؤمنين في ذكرى الليلة التي تفجر فيها نور الحق في محراب أمير المؤمنين عليه السلام عندما عانقته الأرض مشتاقة مستبشرة بعد ضربة غدر من سيف الدعي بن الدعي عدو الله بن ملجم (عليه لعائن الله)

١- سورة الحديد ٢٨

نص الموعظة

رُوِيَ أَنَّ صَاحِباً لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام يُقَالُ لَهُ هَمَّامٌ كَانَ رَجُلًا عابِداً فَقَالَ لَهُ:

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ صِفْ لِيَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ.

فَتَثَاقَلَ عليه السلام عَنْ جَوَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا هَمَّامُ، اتَّقِ اللَّهَ وَ أَحْسِنْ فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ.

فَلَمْ يَقْنَعْ هَمَّامٌ بِهَذَا الْقَوْلِ حَتَّى عَزَمَ عَلَيْهِ.

فَحَمِدَ اللَّهَ وَ أَثْنَى عَلَيْهِ وَ صَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله ثُمَّ قَالَ عليه السلام:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غَنِيّاً عَنْ طَاعَتِهِمْ، آمِناً مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ؛ لِأَنَّهُ لَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ وَ لَا تَنْفَعُهُ طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَهُ.

فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَايِشَهُمْ، وَوَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ، فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ، مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ، وَ مَلْبَسُهُمُ الِاقْتِصَادُ، وَ مَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ.

غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ، نُزِّلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلَاءِ كَالَّتِي نُزِّلَتْ فِي الرَّخَاءِ، وَلَوْ لَا الْأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ شَوْقاً إِلَى الثَّوَابِ وَ خَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ.

عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ، فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ.

قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ، صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً، تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ.

أَرَادَتْهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُوهَا، وَأَسَرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا.

أَمَّا اللَّيْلَ فصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلًا، يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَ يَسْتَثِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ، فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً، وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقاً، وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ، وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَ شَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ، فَهُمْ حَانُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ، مُفْتَرِشُونَ لِجِبَاهِهِمْ وَأَكُفِّهِمْ وَرُكَبِهِمْ وَأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ، يَطْلُبُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ.

وَأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ، عُلَمَاءُ، أَبْرَارٌ، أَتْقِيَاءُ قَدْ بَرَاهُمُ الْخَوْفُ بَرْيَ الْقِدَاحِ، يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ، وَيَقُولُ لَقَدْ خُولِطُوا وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ.

لَا يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ وَلَا يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيرَ، فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ، إِذَا زُكِّيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي وَ رَبِّي أَعْلَمُ بِي مِنِّي بِنَفْسِي، اللَّهُمَّ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ وَ اجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ وَ اغْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ.

فَمِنْ عَلَامَةِ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِينٍ، وَحَزْماً فِي لِينٍ، وَإِيمَانا فِي يَقِينٍ، وَحِرْصاً فِي عِلْمٍ، وَعِلْماً فِي حِلْمٍ، وَقَصْداً فِي غِنًى، وَخُشُوعاً فِي عِبَادَةٍ، وَتَجَمُّلًا فِي فَاقَةٍ، وَصَبْراً فِي شِدَّةٍ، وَطَلَباً فِي حَلَالٍ، وَنَشَاطاً فِي هُدًى، وَتَحَرُّجاً عَنْ طَمَعٍ.

يَعْمَلُ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وَهُوَ عَلَى وَجَلٍ، يُمْسِي وَهَمُّهُ الشُّكْرُ، وَ يُصْبِحُ وَهَمُّهُ الذِّكْرُ.

يَبِيتُ حَذِراً وَيُصْبِحُ فَرِحاً حَذِراً لِمَا حُذِّرَ مِنَ الْغَفْلَةِ، وَ فَرِحاً بِمَا أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ.

إِنِ اسْتَصْعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكْرَهُ لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ.

قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لَا يَزُولُ، وَزَهَادَتُهُ فِيمَا لَا يَبْقَى.

يَمْزُجُ الْحِلْمَ بِالْعِلْمِ، وَالْقَوْلَ بِالْعَمَلِ.

تَرَاهُ قَرِيباً أَمَلُهُ، قَلِيلًا زَلَلُهُ، خَاشِعاً قَلْبُهُ، قَانِعَةً نَفْسُهُ، مَنْزُوراً أَكْلُهُ، سَهْلًا أَمْرُهُ، حَرِيزاً دِينُهُ، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ، مَكْظُوماً غَيْظُهُ.

الْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ، وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ.

إِنْ كَانَ فِي الْغَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ، وَإِنْ كَانَ فِي الذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ.

يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَ يُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ، وَ يَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ.

بَعِيداً فُحْشُهُ، لَيِّناً قَوْلُهُ، غَائِباً مُنْكَرُهُ، حَاضِراً مَعْرُوفُهُ، مُقْبِلًا خَيْرُهُ، مُدْبِراً شَرُّهُ.

فِي الزَّلَازِلِ وَقُورٌ، وَفِي الْمَكَارِهِ صَبُورٌ، وَفِي الرَّخَاءِ شَكُورٌ.

لَا يَحِيفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ، وَلَا يَأْثَمُ فِيمَنْ يُحِبُّ، يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ.

لَا يُضِيعُ مَا اسْتُحْفِظَ، وَلَا يَنْسَى مَا ذُكِّرَ، وَلَا يُنَابِزُ بِالْأَلْقَابِ، وَلَا يُضَارُّ بِالْجَارِ، وَلَا يَشْمَتُ بِالْمَصَائِبِ، وَلَا يَدْخُلُ فِي الْبَاطِلِ، وَلَا يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ.

إِنْ صَمَتَ لَمْ يَغُمَّهُ صَمْتُهُ، وَإِنْ ضَحِكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُهُ، وَإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ.

نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاءٍ وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ، أَتْعَبَ نَفْسَهُ لِآخِرَتِهِ، وَأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ.

بُعْدُهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَ نَزَاهَةٌ، وَ دُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِينٌ وَ رَحْمَةٌ، لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكِبْرٍ وَعَظَمَةٍ، وَلَا دُنُوُّهُ بِمَكْرٍ وَخَدِيعَةٍ.

تمهيد

من هو همّام؟

يقول ابن أبي الحديد المعتزلي في شرحه لنهج البلاغة: همام المذكور في هذه الخطبة هو: همام بن شريح بن يزيد بن مرة بن عمرو بن جابر بن يحي الأصهب من كعب بن الحارث بن سعد من عمرو بن ذهل بن مران بن صيفي بن سعد العشرة.

وكان همّام هذا من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام و أوليائه، وكان ناسكاً عابداً.[1] انتهى.

لماذا يسأل همام عن التقوى؟

يسعى الأسوياء دائماً نحو التكامل الإنساني، كلٌ في مجاله العملي والتخصصي، فهذه نزعة فطرية نلحظ معالمها حتى عند الطفل ومنذ ولادته، فيدرك بفطرته أن الوظيفة التي خُلق من أجلها في هذه المرحلة هي البحث عن أسباب النمو والتقوّي، فيكون فكره موجهاً نحو ثدي أمه ومن ثم النوم، فهذا من شأنه أن يأخذ به نحو التكامل الجسماني وهو المطلوب له تماماً في هذه الفترة من عمره، ومن ثم يبدأ بتوسيع مجاله الغذائي وكذلك الفكري، لأنه يلحظ ظهور المنافسين على السطح، فتدفعه فطرة طلب التكامل للنظر إلى الآخر الأكمل للاكتساب والتحصيل.

وهكذا بالنسبة للكبير عندما يصبح عالم دين، أوطبيب، أومهندس، أوحرفي أو...، كلٌ يبذل الجهود للارتقاء تكاملياً في مجال تخصصه.

ولكن الأغلب – في واقع الأمر– لا يطرقون الباب الصحيح الذي يفتح لهم آفاق التكامل

١- شرح نهج البلاغة لأبي الحديد المعتزلي – ج١٠ ص ١٣٤

الذي هو عندهم في الارتقاء المعرفي عن طريق طلب العلم ومواصلة الدراسة وخوض غمار التجارب، وهذا حسن، ولكنه لا يمكن أن يؤدي إلى التكامل الحقيقي وإلا فإذا كان تسنم معالي العلوم هو معيار التكامل لكان جمع من الملحدين وأضرابهم على القمم !

هنا،، وفي هذه السطور يطل علينا همّام بسؤال ما سمعنا طبيباً يسأله، ولا مهندساً ولا محاسباً ولا مزارعاً، فكلٌّ منهم يعتقد بأن السؤال الذي جاء به همّام لا علاقة له بمجال تخصصه، فهل السؤال عن التقوى يختص بالعباد والنسّاك الذين هم على شاكلة همام فقط؟

للإجابة على هذا السؤال نتعرف أولاً على معنى التقوى.

ما هي التقوى ؟

بيّن أمير المؤمنين عليه السلام المعنى الحقيقي للتقوى في حديثه مع همَّام، ولكننا هنا نخاطب غير همَّام متناولين درر أمير المؤمنين عليه السلام من بُعد آخر، هو الذي نروم إبرازه في هذا الكتاب، فنقول:

التقوى هي الوسيلة المثلى بل الوحيدة للتكامل الحقيقي، بالنسبة للطبيب، والمحامي، والفلاح، وربة البيت وكل من يدّعي الناطقية من بني البشر. فإن أردنا أن نُخرجَ أفضل جراح قلب على مستوى العالم، فعلينا أولاً أن ندخله كلية التقوى، وإن أردنا أن نقود الأمم بأرقى التقنيات، فما علينا إلا أن نلتحق بمدرسة التقوى، تحت إدارة أمير المؤمنين عليه الصلاة و السلام.

لماذا ؟

عندما توجه همّام بالسؤال إلى أمير المؤمنين عليه الصلاة و السلام، كان مُدرِكاً لأهمية التقوى، وربما كان يعلم مفهومها العام والذي مفاده أن تفعل ما من شأنه أن يبعد عنك غضب الله تعالى، ولكنه أراد الإحاطة بكل ما يتعلق بموضوع التقوى، فهو قد قرأ وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾[1] .

١- سورة البقرة ١٧٥

إن همَّام — حسب اعتقادي — قد التفت لقوله سبحانه: «وتزودوا»، وكما هو معلوم أن الزاد يختص بالسفر الزمني كي لا يتعرض الإنسان للافتقار وهو في منتصف الطريق، وكما هو معلوم أن الحياة لا تتعدى كونها طريقاً للآخرة، فصار التزود فيها واجباً عقلياً لا ينكره مسلم، وقد أوضح الله سبحانه وتعالى نوعية الزاد المطلوب في رحلة الدنيا فقال: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾، ومن هنا تراكمت علامات الاستفهام في مخيلة صاحبنا فتوجه بسؤالٍ يحمل بين أضلاعه أسئلة أخرى، مثل:

– ما هو لباس التقوى الذي أشار إليه الباري تعالى في قوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾[١]؟

– ما هو التعاون على البر والتقوى في قوله تبارك ذكره:﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[٢]؟

– كيف نؤسس أعمالنا وأفعالنا على التقوى كما في قوله سبحانه: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾[٣]؟

– ما هي كلمة التقوى التي عناها الله تعالى في قوله: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾[٤]؟

– ما هي كيفية التناجي بالتقوى التي أمر الله بها في قوله: ﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[٥]؟

– ما معنى أن الله سبحانه هو أهل التقوى في قوله: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾[٦]؟

والكثير من الاستفهامات التي جمعها همَّام في طلب واحد طرحه على أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً: صف لي المتقين.

١- سورة الأعراف ٢٦

٢- سورة المائدة ٢

٣- سورة التوبة ١٠٨

٤- سورة الفتح ٢١

٥- سورة المجادلة ٩

٦- سورة المدثر ٥٦

فاقد الشيء لا يعطيه:

هل من الممكن لكلية الطب أن تخرِّج مهندسين؟

هل للطبيب البيطري أن يُدّرسَ الفلك ؟

هل من العقل أن يطلب طالب الفلسفة علمه في مدرسة الرسم؟

لاء كبيرة تأتي في مقام الإجابة على هذه الأسئلة ؛ فالعقل يستقبح طلب الشيء ممن لا يملكه لأنه وبكل بساطة يخالف نظر العقل في أدنى درجاته، وهمَّام في المقام عملَ بمقتضى قول الرسول صلى الله عليه وآله : "أنا مدينة العلم وعليٌ بابها"[1]، وبذلك قرر دخول المدينة من الباب الذي عينّه الرسول صلى الله عليه وآله، وهذا القرار لا يخلو من حكمة من المفترض أن نجعلها قانوناً في حياتنا ومنهجاً لسلوكياتنا، مفادها الاستغناء بالنبع الأصيل عن البحيرات المتفرقة والتي عادةً ما تكون عرضة للحشرات والمايكروبات و ما أشبه، فإذا كان عندنا ثقلان بمستوى القرآن الكريم والعترة الطاهرة كان من غير المقبول منهجياً اللجوء لغيرهما تقديماً واعتماداً. نعم، لاشك في أن الاستفادة من مختلف العلوم لتقوية نقاط الإدارك والفهم والاستيعاب عند الإنسان حتى ينمي القدرة التواصلية في عمق تعاطيه مع الثقلين أمر لابد منه، وهذا يختلف كلياً عن الاعتماد في استقاء العلم والمعرفة على غير القرآن والعترة .. فتأمل جيداً.

ومن ناحية أخرى، يستوقفنا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[2]، وكذلك قوله عز وجل: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾[3]. ففي هذه الآيات، وآيات كثيرة أخرى ينبهنا الله سبحانه وتعالى إلى ضرورة طلب العلم من العالِم وليس ممن هو دونه، لامتناع التساوي — في الجانب العلمي – بين من يعلم ومن لا يعلم.

وقد دلّنا القرآن الكريم من خلال آياته، والرسول الأعظم صلى الله عليه وآله من خلال أحاديثه الشريفة على ينابيع العلم التي يجب علينا اللجوء إليها في جميع احتياجاتنا، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾[4] ومن ثم جاء الرسول صلى الله عليه وآله ليجيب على سؤال أبي سعيد الخدري المتعلق بمن عنده علم الكتاب قائلا: «ذاك أخي علي

١- بحار الأنوار ج٤ ص٢٠١

٢- سورة الزمر ٩

٣- سورة الفاطر ١٩

٤- سورة الرعد ٤٣

بن أبي طالب»[1] .

ونشير أيضا إلى رد الإمام الصادق عليه السلام على استفسار بُريد بن معاوية عندما ذكر الآية الكريمة، فقال عليه السلام : «إيانا عنى، وعلي أولنا وأفضلنا وخيرنا بعد النبي صلى الله عليه وآله»[2].

لقد أنعم الله علينا بجامعة أهل بيتٍ طاهر، وهي الجامعة الحاوية لكافة أنواع العلوم والمعارف، فصار من الأجدر بنا أن نتوجه إلى أهلها دائماً فننهل من نمير علومهم التي يبقى نبض العنفوان فيها ما دامت الحياة.

وهذا هو سيدنا ومولانا الإمام الصادق عليه السلام يقول: «إن اسم الله الأعظم على ثلاثة وسبعين حرفاً، وإنما كان عند آصف منها حرف واحد، فتكلم به فخسف بالأرض مابينه وبين سرير بلقيس حتى تناول السرير بيده ثم عادت الأرض كما كانت أسرع من طرفة عين، ونحن عندنا من الاسم الأعظم اثنان وسبعون حرفاً، وحرف واحد عند الله تعالى استأثر به في علم الغيب عنده ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[3].

إذاً، كان اختيار همَّام صائباً وفي محله، فأمير المؤمنين عليه السلام هو خزانة علم الرسول صلى الله عليه وآله، وهو وارث علم الأنبياء (عليهم السلام)، فهو الأعلم بلا ريب بعد الرسول صلى الله عليه وآله وباتفاق علماء المسلمين قاطبة، وأول من أقر بذلك هو الخليفة الثاني حين قال: «أقضانا علي»[4]، ولا قضاء بلا علم، فلازم ذلك أن يكون عليٌ عليه السلام الأعلم، وهذا واضح.

وربما يسأل سائل:

نحن لا نلتقي الإمام (عجل اللهم فرجه الشريف) في زمن الغيبة، فإلى من نلتجئ وإلى أي صوب نتوجه ؟

لقد أجاب الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله على هذا الإشكال عندما قال: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل»[5].

١- وسائل الشيعة ج ٢٧ ص ١٨٨

٢- وسائل الشيعة ج ٢٧ ص ١٨١

٣- الكافي ج١ ص ٢٣٠

٤- - سير أعلام النبلاء للذهبي ج١ ص٣٩١

٥- مستدرك الوسائل ج١٧ ص ٣٢٠

كما أنّ أمير المؤمنين عليه السلام بيّن لنا صفات العلماء الذين ينبغي علينا اتباعهم والأخذ منهم إذا اختلطت الأمور وبات من المتعسر التفريق بين الصالح والطالح، فكان توضيح الأمير عليه السلام بمثابة طوق النجاة في بحرٍ قد اشتد ظلامُه وتلاطمت أمواجُه.

قال عليه السلام :

«طلبة هذا العلم على ثلاثة أصناف ألا فاعرفوهم بصفاتهم و أعيانهم، صنف منهم يتعلمون للمراء و الجهل، و صنف منهم يتعلمون للاستطالة و الختل، و صنف منهم يتعلمون للفقه و العقل . فأما صاحب المراء و الجهل تراه مؤذياً ممارياً للرجال في أندية المقال قد تسربل بالتخشع و تخلى من الورع فدق الله من هذا حيزومه و قطع منه خيشومه، و أما صاحب الاستطالة و الختل فإنه يستطيل على أشباهه من أشكاله و يتواضع للأغنياء من دونهم فهو لحلوائهم هاضم و لدينه حاطم فأعمى الله من هذا بصره و قطع من آثار العلماء أثره، و أما صاحب الفقه و العقل تراه ذا كآبة و حزن قد قام الليل في حندسه و قد انحنى في برنسه، يعمل و يخشى خائفاً وجلاً من كل أحد إلا من كل ثقة من إخوانه، فشد الله من هذا أركانه و أعطاه يوم القيامة أمانه».

فالالتفاف حول مراجعنا العظام وعلمائنا الأعلام الذين وُفّقوا لصفات العالِم الحق ضرورة قد أقرها السمع والنقل، فهي السبيل نحو التكامل الذي يرجوه كل إنسان يعمل لله ويبتغي وجهه الكريم.

لماذا تثاقل أمير المؤمنين عليه السلام عن الإجابة في بداية الأمر؟

لقد وضع الإمام عليه السلام همَّام تحت اختبار نفسي يستند إلى أصل لم يتوصل إليه علم النفس إلا مؤخراً، ألا وهو (الأصل الذهني) والذي تتفرع منه نظرية (الفعل المنعكس الشرطي)، وهذه النظرية قد أقرتها (مدرسة بافلوف والاتجاه النفسي المعاصر بعامة في الاتحاد السوفيتي سابقاً) وتقول – بإيجاز – أن ردود الفعل عند الإنسان تنتج عن اتحاد العامل الحسي بالعامل النفسي، فعند عدم صدور رد فعل لفعل ما، نعلم بأن هناك خللاً إما في الجانب الحسي أو الذهني، وربما في كليهما .

نلاحظ أن أمير المؤمنين عليه السلام قد اتخذ بتثاقله عن الإجابة في بداية الأمر موقفاً سلبياً، وكان ذلك كما هو واضح لاستثارة الجانب الحسي عند همّام، وهو ما يسمى في علم النفس (الفعل المنعكس)، أما ردة الفعل عند همّام فكانت تحفزه الحسي الذي ربما ظهر على ملامحه مما دعا أمير المؤمنين عليه السلام لاستنهاض الجانب الذهني عنده بإجابة مقتضبة حين قال «يا همَّام، اتق الله وأحسن» و﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ فكان (رد الفعل المنعكس الشرطي) عند همَّام أنه أبدى عدم الاكتفاء بهذا القول بدليل أنه «عزم عليه» — أي على أمير المؤمنين عليه السلام – بمعنى أنه أقسم وأصّر عليه.

عندها كان العلم بأن همَّام قد وصل إلى درجة لا بأس بها من الاستعداد لتلقي الموعظة فبدأها عليه السلام مباشرة.

لماذا كان هذا الامتحان من أمير المؤمنين عليه السلام ؟

تشترط العلومُ توفر المتلقي على قابلية الأخذ حتى تستقر في صدره، ونعني بالقابلية أن تكون أهداف الإنسان واضحة أمامه، وأن يكون عاقداً للعزم على تحصيل واكتساب العلوم المحققة لها، وبالتالي يصّفي ذهنه ويجمع تركيزه على ماهو مقبل عليه وفيه، ففي كثير من الأحيان نجد السائل يسأل للفت الانتباه إلى شخصيته، أو يسأل في الوقت الذي لا يريد أن يفهم أصلاً، فيكون السؤال لغواً، والإجابة عليه مضيعة للوقت، وفي هذا يقول سبحانه وتعالى:﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1] .

فعلينا إذاً أن نشخّص حال الذي نتحدث إليه حتى نحدد المنهج الخطابي الأنسب لممارسته معه، كما وينبغي التأكد من جاهزيته للحوار، وبذلك نكون قد هيأنا الأجواء لاستثمار كل لحظة نقضيها في نقاش أو جدال بالتي هي أحسن.

يجدر بنا أيضا أن نشير إلى دلالة في غاية الأهمية، وهي محاولة الأمير عليه السلام في شحذ الهمة الذهنية لهمّام، مما يدل على أنه عليه السلام كان يبتغي الإفادة، وهذا يبين لنا أهمية التمتع بنية صادقة وإخلاص في العمل الرسالي، وقد كانت المحاولة ناجحة بدليل عزم همَّام وإصراره على الاستفادة من أمير المؤمنين عليه السلام ، وهذه العلامات تدل على استعداد السائل للتلقي وصدق نيته غالباً.

١- سورة يونس ٤١ – ٤٢

(نجاح المشروع الرسالي يشترط استهلاله بذكر الله والثناء عليه)

البداية:

«فَحَمِدَ اللَّهَ وَ أَثْنَى عَلَيْهِ وَ صَلَّى عَلَى النَّبِيِّ ^»

جاء عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إذا فعل العبد ما أمره الله عز وجل به من الطاعة كان فعله وفقاً لأمر الله عز وجل وسمي العبد به موفقاً، وإذا أراد العبد أن يدخل في شيء من معاصي الله حال الله تبارك وتعالى بينه وبين تلك المعصية فتركها كان تركه لها بتوفيق الله تعالى، ومتى خلي بينه وبين المعصية فلم يحل بينه وبينها حتى يرتكبها فقد خذله ولم ينصره ولم يوفقه»[١].

إذاً، التوفيق هو مطابقة أعمال العبد لأوامر الله من حيث الائتمار والانتهاء، وتحقق هذا التطابق يحتاج لمقدمات.

ألا ترى أنّ الإنسان ينوي أداء الصلاة في أول وقتها – مثلاً– ولكنه لا يتمكن من ذلك وكأن هناك ما يمنعه ويحول بينه وبين تحقيق ما نوى عليه؟

و ألا ترى أنّ آخراً ينوي ويعقد العزم على التصدق بعشرة دنانير – مثلاً– وفي نهاية اليوم تجده ناكصاً بحجة أن السائل يكذب أو أن هناك من هو أحوج منه وغير ذلك من الحجج والأعذار؟

إنّ اختيار الإقدام على العمل من عدمه هو من شأن الإنسان، ولكن التوفيق للوقوع والتحقق هو شأن الله سبحانه وتعالى، ولتحقيق ذلك يجدر بالإنسان أولاً أن يجهز النفس لبذر

١- بحار الأنوار ج٥ ص١٩٩

بذور النية الخالصة للفوز بوعد الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[1].

يقول العلامة الطباطبائي قدس سره في تفسير هذه الآية الكريمة ما نصه:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ «تحضيض لهم على الجهاد و وعد لهم بالنصر إن نصروا الله تعالى، فالمراد بنصرهم الله أن يجاهدوا في سبيل الله على أن يقاتلوا لوجه الله تأييداً لدينه وإعلاءً لكلمة الحق لا ليستعلوا في الأرض أو ليصيبوا غنيمة أو ليظهروا نجدة وشجاعة. والمراد بنصر الله لهم توفيقه الأسباب المقتضية لظهورهم وغلبتهم على عدوهم»[2].

لقد جعل الله عز وجل شرطاً لنيل توفيقه وتسديده وهو الانتصار له سبحانه، وهذا مقيدٌ أيضاً بفردية الهدف المطلوب والذي يجب أن يكون دائماً وأبداً إعلاء كلمة الحق لوجهه تبارك ذكره.

فحديث المولى عليه السلام عن التقوى يجب أن يكون مطابقاً لما يريد الله سبحانه وتعالى، ولا شك في أن تجديد العهد وإقرار الإقرار بما هو حق فيه مرضاة لله جل ذكره، لذلك بدأ عليه الصلاة و السلام بحمد الله والثناء عليه.

ما هو الحمد والثناء:

من عظمة الله سبحانه وتعالى أنَّ كُلَّ أسمائه جميلة، كما أن كل أفعاله كذلك، وأن ما من أمر جميل إلا كان له تعالى، والإقرار بجمال المتفق على جماله أمر يستحسنه العقل، فما بالك إذا كان الأمر يتعلق بجمال الله جلت قدرته؟

١- سورة محمد ٧

٢- - الميزان في تفسير القرآن

كيف نظهر الإقرار بجمال الله سبحانه وتعالى؟

من المعلوم أن الله تبارك شأنه يريد الخير بالإنسان وله على نحو الإرادة التشريعية الموكل وقوع موضوعها إلى نفس الإنسان، وفي ذلك نورد بعض الآيات التي تُقر إرادة الله لِما يجلب الخير والمنفعه للبشر، فيقول سبحانه:

١. ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[١].

٢. ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾[٢].

٣. ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[٣].

٤. ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾[٤].

٥. ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٥].

فالله سبحانه وتعالى عالمٌ ويريدنا أن نتعلم، وهو حكيم ويريد منا أن نكون حكماء، وهكذا حتى نصل إلى صفة الحمد التي ثبتها عز وجل لنفسه فقال:﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[٦]، فلأنه سبحانه وتعالى حميد، وبما أن كل أسمائه عزّ وجل في مقام الجمال الرباني، كانت سورة الفاتحة بمثابة التلقين الأدبي والأخلاقي للعباد، فقال سبحانه وتعالى في صدرها ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٧]، و(أل) العهدية تفيد أن كل عمل محمود فهو من الله ولله جلت عظمته، ومن هنا كان حمده تعالى والثناء عليه يمثل أروع صور الجهاد الأخلاقي والسلمي مما يوجب رضا الله سبحانه وتعالى وبالتالي نيل توفيقه.

١- سورة البقرة ١٨

٢ سورة آل عمران ١٠٨

٣ سورة النساء ٢٦

٤ سورة النساء ٢٨

٥ سورة المائدة ٦

٦ سورة البروج ٨

٧ سورة الفاتحة ٢

أما الحمد – على ما قيل– هو الثناء على الجميل الاختياري والمدح أعم منه، يُقال: حمدت فلاناً أو مدحته لكرمه، ويقال مدحت اللؤلؤ على صفائه، ولا يقال: حمدته على صفائه، واللام فيه للجنس أو الاستغراق والمآل هاهنا واحد.[1]

ومن بعد ذلك أتبع الإمام عليه السلام حمده وثناءه على الله سبحانه وتعالى بالصلاة على النبي صلى الله عليه وآله، وذلك امتثالا منه عليه الصلاة و السلام لقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[2] .

ولتوضيح معنى الصلاة أقول بأن الصلاة في كتاب الله جاءت لمعانٍ (منها):

١ . قوله تعالى:﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ أي ادعُ لهم إن دعاءك سكن وتثبيت لهم.

٢ . قوله تعالى:﴿إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ ويريد الصلاة المفروضة.

٣ . قوله تعالى:﴿أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ أي ترحم.

٤ . قوله تعالى:﴿أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ أي دينك، وقيل: كان شعيب كثير الصلاة فقالوا له ذلك[3].

ويقول الطباطبائي: «هي من الله سبحانه انعطاف إلى العبد بالرحمة، ومن الملائكة انعطاف إلى الإنسان بالتوسط في إيصال الرحمة، ومن المؤمنين رجوع ودعاء بالعبودية»[4] .

بمعنى أن قول «اللهم صل على محمد وآل محمد»، هو دعاء ينم عن اعترافنا بفضل الرسول وآله (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين)، والذي هو بالتالي تصديق بالله سبحانه وتعالى، فيكون الأمر بأجمعه جهاداً إعلامياً لنشر ما نعتقد به من أصول قد فرضها علينا المولى تبارك ذكره، مما يمثل المقدمة الصائبة للفوز بتوفيقه تعالى، وهو المطلوب.

---

١ - الميزان في تفسير القرآن

٢ سورة الحزاب ٥٦

٣- مجمع البحرين ج١ ص٢٦٦

٤- الميزان ج١ ص٣٥٨

الأثر النفسي للحمد والثناء على الله والصلاة على النبي وآله:

يعيش الإنسان ومن أول ساعات الولادة في حرب ضروس ضد الشهوات ومكائد الشيطان والظروف التي لا تتوافق مع الفطرة، ومن المعلوم أنّ أي نوع من الحروب التي يخوضها الإنسان تتضاءل وتتصاعد النسبة في احتمالات الفوز والظفر فيها حسب قوة وتطور العتاد الذي يعتد به، فتجده مهزوماً حتى من قبل أن يخوض المعركة إذا كان يفتقر إلى السلاح المناسب، في حين أن معنوياته تتسامى إذا اقترن إقباله بتسلح يرتقي إلى مستوى المعركة.

بناءً عليه، نفهم أن المطلوب من كل مؤمن عاقل حصيف هو البحث عن أقوى أسلحة المواجهة وأمضاها حتى تتحقق في نفسيته الثقة بالظفر والانتصار، وهذا المؤمن العاقل الحصيف يعلم جيداً أنه لا سلاح كسلاح شد الوثاق مع الله عز وجل والتوكل عليه، وهذا ماتقدمه يد الغيب الإلهية متجسداً في الحمد والثناء والصلاة على النبي وآله الأطهار.

إنّ الحمد والثناء على الله والصلاة على النبي وآله، كلها تمثل باباً من أبواب الانتصار لله تبارك ذكره، إذا كانت عن عقيدة صادقة لا لقلقة لسان فقط، فهي السلاح الأقوى الذي يبعث على الثقة بالنفس والإقدام المتماسك على ساحات الجهاد.

ومن هنا كان الأمر سربالاً تسربل به الرسول صلى الله عليه وآله والمعصومون عليهم السلام انطلاقاً من عقيدة راسخة لا تزعزعها الأعاصير ولا يؤثر فيها طوفان الشياطين، وهكذا يجب علينا أن نكون.

(بداية الرحلة باستذكار توحيد الله وغناه المطلق)

قوله عليه السلام:

«فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غَنِيّاً عَنْ طَاعَتِهِمْ، آمِناً مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ؛ لأَنَّهُ لاَ تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ، وَلاَ تَنْفَعُهُ طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَهُ. فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَايِشَهُمْ وَ وَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ»

مقدمة تفيد التحديد العام:

ثبت حمل الخالقية على الله سبحانه وتعالى، فكل شيء مخلوقٌ له متقومٌ به مفتقرٌ في أصل وجوده وبقائه واستمراره إليه عزّ وجل، فلا تظنن أيها الإنسان أن عملك في هذه الدنيا سواء كان في طاعة أو معصية يعود على الله عز وجل بشيء، بل إن مرده كله عليك أنت في الحياة الدنيا والآخرة.

أيها السائل البائس، همَّام كنت أو غيره، اعلم وتيقن بأن عملك الصالح إذا كان بدافع طلب الرفعة بين الناس فإنك في الآخرة مخذول، لذا اعمل على أن يكون كلُ شيء لله عز وجل وطلباً لرضاه ، فهو الغني مطلقاً بما لا تتمكن لا أنت ولا مخلوق غيرك من تصوره ولو أفنيت عمرك بحثاً وتنظيراً، ولك أن تتأمل هذه الحقيقة الفصل، وهي أنك عاجز كل العجز عن التفكير خارج نطاق الزمان والمكان، وهما مخلوقان لله عز وجل! فتأمل جيداً، وكن عاملاً وطالباً لما أراده المولى منك .. وفقط.

يهيئ أمير المؤمنين عليه السلام همَّام لمهمة جديدة وهي مهمة المحافظة على نيته من السؤال عن صفات المتقين خالصةً لوجه الله تعالى، وذلك ببيان بليغ ذكر فيه عليٌ عليه السلام غنى الله المطلق، والمؤدى أنه: إن اتقيت فلنفسك وإن لم تتقِ فعليها.

الكيفية المتوقعة لذهن همّام عند تلقيه العبارات الأولى:

علمنا من خلال موجز التعريف بهمَّام، أنه كان من شيعة الإمام عليه السلام، وأنه كان عابداً متنسكاً، وهذا يعني أن همَّام ليس بحاجة إلى دروس في أصول التوحيد، ولكنه يحتاج ونحن كذلك لاستذكار ما نختزنه في عقولنا من صور وعلوم، وذلك من باب ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[1]، فمن المتوقع أن همَّام وبسبب مقدمة الأمير عليه الصلاة و السلام قد استذكر الأمور التالية:

- وحدانية الله سبحانه وتعالى وفردانيته من خلال البحوث المثبتة في مكانها والتي تنطلق من عنوان (الخالق والخلق).
- عظمة الله سبحانه وتعالى من خلال إشارة الأمير عليه السلام لغناه المطلق، وهذا يثير أمراً غير مألوف عند الإنسان، وهو عدم استقلالية الصفة عن الذات؛ لأن مجرد تصور الاستقلال بينهما يعني انتفاء الغنى المطلق من رأس، حيث أنّ كل مركب منهما يكون في حاجة إلى الآخر، فمن كان الأمر مثبتاً عنده يستحضر بقدر الإمكان تلك العظمة التي لا تدركها العقول، فيتحفز لاستقبال القادم بروح قد سلّمت أمرها للباري تبارك ذكره.

بداية الاستعداد:

عندما يبدأ المتلقي في الدخول من بوابة الحقائق الكونية لجنّة التسليم فإنه يُصَدِّقُ مجدداً على بنود المعاهدة التي عقدها مسبقاً مع الله سبحانه وتعالى، والتي من أهمها الشعور بحلاوة الضعف والاستكانة والتصاغر أمام واجب الوجود، فيكون هذا الشعور هو الذي يجذب العبد إلى الحرية بمعناها الحقيقي، وبما أننا قد حددنا ملامح الموضوع بناءً على سؤال همَّام ومقدمة الأمير عليه السلام، فإن الصورة الاستعدادية المطلوبة تكون قد اتضحت، مما يؤدي إلى تكامل الحضور الذهني بالنسبة للمتلقي، فيسهل على الملقي البدء بالولوج في صلب الموضوع.

١- سورة الذاريات ٥٥

إشارة إلى عظمة التواضع وتفاهة التكبر والغرور:

يقول الله سبحانه وتعالى﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[١]، ويقول تبارك ذكره ﴿وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾[٢].

إنّ أوّل من استكبر على الحق هو إبليس لعنه الله وباستكباره كان من الكافرين، أما سبب ذلك الاستكبار فهو﴿قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[٣].

يعتقد كثيرون أن المطب الذي أوقع إبليس فيه نفسه هو مطب القياس بين مادة النار ومادة الطين، وهذا اعتقاد جيد، إلا أن الذي أرى خطورته فعلاً هو قياسه بين نظرتين، نظرته ونظرة رب الأرباب سبحانه وتعالى، وكأنه يقول لله بأن هذا التمييز الذي أفضت به على آدم ليس في محله!!

إن هذا الضرب من أضراب القياس مؤداه الحتمي إلى الغرور والاستكبار، فالحسد والضغائن، ومن ثم القطيعة والحرب والارتماء في أحضان إمام الغرور و هو إبليس الرجيم.

انتقلت تلك الصورة التي قبّحها الشيطان بغروره واستكباره إلى طوائف من بني آدم، فانتشر بين الناس الحسد بعد أن أنشب الغرور والاستكبار أنيابه في العلاقات وحلقات التواصل.

أتساءل هنا..

هل من مبرر للغرور والتكبر؟

هل من العقل والإنسانية أن يتعالى الإنسان على غيره ؟

هل من إجابة بعد تأمُل قول أمير المؤمنين عليه السلام : «مسكين ابن آدم، مكتوم الأجل، مكنون العلل، محفوظ العمل، تؤلمه البقة، وتقتله الشرقة، وتنتنه العرقة»[٤].

فعلامَ الغرور والاستكبار أيها الإنسان، وأنا وأنت كما يقول الأمير عليه السلام: «ما لابن آدم والفخر، أوله نطفة وأخره جيفة، ولا يرزق نفسه ولا يدفع حتفه» .

١- سورة البقرة ٣٤

٢- سورة لقمان ٣٣

٣- - سورة الأعراف ١٢

٤- نهج البلاغة ص٥٥٠

بل من الحري بنا أن نستر سوآتنا بثوب التواضع، لقول الإمام العسكري عليه السلام في التفسير المنسوب إليه: «من تواضع في الدنيا لإخوانه فهو عند الله من الصدّيقين من شيعة علي بن أبي طالب»، و لقول الإمام الصادق عليه السلام : «من تواضع لله شرفه الله على كثير من عباده، ولأهل التواضع سيماء يعرفها أهل السماوات من الملائكة وأهل الأرض من العارفين»[1].

إنّ التواضع تاجٌ قدّمه لنا أهل البيت عليهم السلام في بهاءٍ تام، وهذا ضرار بن ضمرة النهشلي يصف علياً عليه السلام قائلاً: «رحم الله علياً، كان والله فينا كأحدنا، يدنينا إذا أتيناه، ويجيبنا إذا سألناه، ويقربنا إذا زرناه، لا يغلق له دوننا باب، ولا يحجبنا عنه حاجب، ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منا، لا نكلمه لهيبته، ولا نبتديه لعظمته، فإذا تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم» [2] .

لم يكن مقام أمير المؤمنين عليه السلام مانعاً من تواضعه ولا دافعاً لمسلك غيره، والسبب هو أن أمير المؤمنين عليه السلام يعلم جيداً أنّ المقسّم للأرزاق والضمان للمعائش والمقامات هو المولى العلي القدير سبحانه وتعالى.

إنه عزّ وجل وبالرغم من غناه المطلق خلق الإنسان ولم يتركه مأكلاً للأيام ولا مغنماً للتربان، ولكنه أبدع في تقسيم المعايش بين الناس ووضع كل واحدٍ منهم في موضعه الذي لا يتناسب مع غيره على الإطلاق[3]، وبذلك فإن الفوارق بين الناس سواء كانت مادية أو معنوية فالمرجع في كلها إلى الله عز وجل، وبالتالي فإنه لا مبرر يبقى لأي نوع من التكبر والغرور.

لذا فإنه من الحري بنا الآن أن ننضم لهمَّام في رحلته الروحانية مع أمير المؤمنين عليه السلام .

١- مستدرك الوسائل ج١١ ص٢٩٨

٢- - الأمالي - الشيخ الصدوق - ص ٧٢٤

٣- - المناسبة مناسبة لحظية، فزيد في حاله (الآن) لا يمكن أن يناسبه حال آخر في نفس (الآن)

(الأسس العامة لأهل التقوى)

قوله عليه السلام:

« فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ، مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ، وَمَلْبَسُهُمُ الِاقْتِصَادُ، وَمَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ»

أفضل الناس:

بعد أن بيّن الإمام عليه السلام تساوي الناس في الوجود من حيث المعنى، وأشار إلى التفاوت بينهم في الماديات من حيث المعايش والمواضع، جاء هنا ليرسّخ قانوناً إلهياً مهماً، هو: «فالمتقون فيها هم أهل الفضائل».

إن استعمال الضمير (هم) للتأكيد بشدة على أن الأفضلية بين البشر لا تُقاس ولا تُحدد بما يختزنه الفرد من أملاك، ولا بنوع الشهادة الدراسية، ولا بالنَسَب، ولا بفخامة الملبس، ولكن الأمر يتعلق بجانب واحد فقط هو جانب التقوى، فالمتقي هو الأفضل اعتماداً على الميزان الإلهي، وفي هذا تصديق لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾[1] . و (إنما) قد حصرت القبول من المتقين دون سواهم، وهذا يعني أنّ أي أثر يتركه عمل ما في هذه الدنيا وإن كان أثراً حسناً فهو لايدل على القبول من الله عز وجل، إذ أنه متوقف ومعلق على أمر واحد فارد وهو (التقوى).

وقد صدع بها الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله في حجة الوداع حين قال: «إن أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى»[2] .

١- سورة المائدة ٢٧

٢- - بحار الأنوار ج٧٣ ص٣٥٠

ليس في قدرة أي شيء إنشاء رابطة أو صلة بين العبد وربه، وهذا جارٍ في الصلاة والصوم والحج وسائر العبادات سواء كانت واجبة أو مستحبة، فهي في غايتها ممارسة مقدور عليها بالنسبة للعبد، حتى لو كان في غير وعيه بسبب جنون أو سكر أو ماشابه.

لذا فإن عمل الإنسان في هذه الدنيا يحتاج دائماً وأبداً إلى داعم يسنده ويحلق به نحو السماء، وهذا لا يتوفر إلا بالتقوى ليعلم أن ثقل التميز خارج عن كل الماديات وهو مستجمع في روح المعنى الإيماني فقط، وبذلك تتلاشى الأنساب والأصول والأعراق والألوان عندما تبدأ شمس التقوى في البزوغ والتألق.

الفضائل:

الفضائل جمع فضيلة، والفضيلة هي الدرجة والرفعة في الفضل، كما أنها ترجّح كفة الميزان ليصدر الحكم بالتميز.

وقد تفضل علينا سماحة آية الله العظمى الإمام السيد محمد الحسيني الشيرازي ﭬ ببيان الأخلاق الفاضلة والصفات الحسنة، في مقدمة رسالته العملية والموسومة باسم «المسائل الإسلامية» فحددها على النحو التالي:

١- الاطمئنان بوعود الله تعالى ٢- التأني في الأمور ٣- تصغير النفس عند الله تعالى ٤- الإنصاف ٥- الغنى عن الناس ٦- الإيثار ٧- الإنفاق في سبيل الله ٨- إعانة الناس ٩- تعويد النفس على الأمور الحسنة ١٠- الأمر بالأمور الحسنة ١١- النهي عن الأمور القبيحة ١٢- الإصلاح بين الناس ١٣- الإخلاص في الأعمال ١٤- الأُنْس بالله تعالى ١٥- بر الوالدين ١٦- التواضع ١٧- التزاور ١٨- التآلف ١٩- التوبة حتى عن الأمور غير المحرمة مما يبغضه الله تعالى ٢٠- التسليم لأوامر الله تعالى في كل شيء ٢١- التوكل على الله تعالى ٢٢- الثبات في الأمور الحسنة ٢٣- الحلم ٢٤- حسن الخلق ٢٥- حفظ حقوق الجيران ٢٦- محبة الله ومَن أمر الله بحبه ٢٧- الحب في الله ٢٨- البغض في الله ٢٩- الخوف من الله ٣٠- الرجاء من الله ٣١- الخوف من الذنوب ٣٢- عدم الاعتماد على الأعمال ٣٣-المداراة مع الناس ٣٤- المداراة مع النفس ٣٥- المداراة مع الأهل والأولاد ٣٦- الرضا بالقسمة ٣٧- الزهد ٣٨- الكرم ٣٩- الستر على الناس ٤٠- إصلاح عيوب النفس ٤١- طيب اللسان ٤٢- الشكر للنعم ٤٣- إصلاح الناس باللسان الطيب ٤٤-

كثرة التصدق وإعانة الضعفاء ٤٥- صلة الرحم ٤٦- إفشاء السلام ٤٧- تفقد الضعفاء والمرضى والأيتام ٤٨- النظافة ٤٩- حفظ عيب الناس ٥٠- استواء الظاهر والباطن في جميع الأمور ٥١- الصدق واجتناب الكذب حتى في الهزل ٥٢- الصبر ٥٣- ضيافة المؤمن ٥٤- إجابتهم في الضيافة ٥٥- إرسال الهدايا في الموارد المتعارفة وكذلك قبولها ٥٦- العفو عن الناس ٥٧- العفة ٥٨- العدالة في كل شيء ٥٩- تعظيم أهل الدين ٦٠- تجنب الرذائل ٦١- الغيرة ٦٢- حب الفقراء ٦٣- المجاهدة مع النفس ٦٤- إعطاء القرض ٦٥- قضاء حوائج المؤمنين ٦٦- كف الأذى عنهم ٦٧- حفظ السر وعدم إفشائه ٦٨- ذكر الناس بالخير ٦٩- التعجيل بالخير ٧٠- محاسبة النفس ٧١- نصح المؤمنين ٧٢- نية الخير ٧٣- تصفية النفس وإماطة عثرات المؤمن عنها ٧٤- التقوى ٧٥- الورع ٧٦- اجتناب الشهوات ٧٧- الصبر على المصيبة ٧٨- الصبر على الطاعة ٧٩- ذكر الموت والآخرة ٨٠- القناعة ٨١- الحياء ٨٢- طلاقة الوجه.

كانت تلك أهم الفضائل التي من شأنها أن تفتح لنا أبواباً من الخير والفلاح، وسوف يتضح – إن شاء الله تعالى- من خلال الصفحات القادمة أن التقوى هي الباعث الأقوى والأكمل لها، وسوف يُظهر لنا الأمير عليه السلام كل الخطوط التي تتحد في خط واحد عند نقطة معينة، ليكون هذا الخط هو المؤدي للفوز بحق التقوى، فنغنم خيراً بعون الله سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة.

مخاطبة النفس:

الميل العقلي الفكري أو القلبي العاطفي ميل مشكك مفهوماً، فميل زيد لبكر يختلف في شدته عن ميله لعامر – مثلاً-، وفي نفس السياق قد يتلقى شخص أمراً واحداً من شخصين مختلفين فيمتثل لأحدهما ويعرض عن الآخر، وقد يأخذ بنفس النصيحة من شخص ويرفضها من غيره، فما هو السبب يا ترى؟

إنه فن الاستمالة ومهارة الاستقطاب، وصورته العملية في قوله عليه السلام: «فالمتقون فيها هم أهل الفضائل: منطقهم الصواب ......»

فالملاحظ أن صيغة الخطاب هنا قد خلت من الأمر المباشر، لأن البيان من المفترض أن يكون قد غازل ذهن المتلقي (همّام) ببلاغة المقدمة التي كشفت عن علو مرتبة التقوى

وصيرورتها هدفاً لكل عاقل، فما كان من أمير المؤمنين عليه السلام إلا أن بادر بصرف الاستيحاش عن همَّام واستجلاب الاستئناس له، وذلك تأسياً بصيغة الخطاب الإلهي في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1]، ففي قوله سبحانه وتعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ إشارة إلى أن هذا الفرض قد فعله الذين من قبلكم امتثالاً لأمر الله تعالى، فلا تستوحشوه.

وعلى هذا المنهج كان خطاب أمير المؤمنين عليه السلام، وكأنه يقول لهمَّام: (لا تعتقد يا همَّام أن التقوى أمر مستحدث فتستوحشه).

ثم أنه من الثابت في علم النفس أن الإنسان يحب الاقتداء، كلٌ على شاكلته، ولذلك لم يقل الإمام عليه السلام لهمَّام: يا همَّام، يجب أن يكون منطقك الصواب!

وإنما أرشده أولاً إلى أن هناك من يتصفون بصفات المتقين فالاقتداء بهم يجعلك منهم.

فيا ليتنا نستفيد من هذه الرائحة التربوية في التعليم التي جاد بها علينا أمير المؤمنين عليه السلام.

منطقهم الصواب:

يشترك أفراد البشر في خاصية القدرة على الكلام بواسطة حركة اللسان وبعض العوامل الملازمة والتي تنتج عنها جميعاً ألفاظ تسهّل التفاهم فيما بينهم، فنجد بأن العاقل يقدر على التلفظ بكلام يتكون من حروف واضحة، وكذلك المجنون، والكبير، والصغير، والحكيم، والسفيه، فكل البشر – غالباً – باستطاعتهم ذلك، هذا إذا حملنا قول الإمام عليه الصلاة و السلام (منطقهم) على معنى التلفظ اللساني، وهذا الحمل ضعيف بل بعيد جداً، لأن اللسان ليس إلا أداة معبرة تترجم ما تؤمر به من ألفاظ مفهومة، وليس بالضرورة أن تكون صائبة.

والصحيح أن نقول بأن المنطق هو قول العقل، وقد قيّده الإمام عليه السلام بقوله (الصواب)، وبعبارة أخرى نقول بأنهم (المتعقلون)، حيث إن التعقل هو العقل في بُعد الفعل والعمل تحت سلطة التحقيق وشمولية النظر بالتأسيس على الحق ومايوصل إليه.

١- سورة البقرة ١٨٣

إن قول الإمام عليه السلام: (منطقهم الصواب) يحمل بين ثناياه مضاميناً شامخة، منها أهمية الالتفات لمثل لقوله تعالى:﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[1]،وقوله تبارك ذكره﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[2]، وقوله جل وعلا: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾[3] .

من الواضح أن العلم يمثل مقدمة لمراحل يطمح لها الإنسان السوي حتى يدخل منطقة (منطقهم الصواب)، وهذه المراحل في مجموعها هي التي ترسم طريق التكامل الإنساني.

قد يقال بأن العلم من الممكن أن يكون مقدمة لهلاك الإنسان، كالذي صنع القنبلة الذرية بعلمه مثلا.

و رداً على هذا الإشكال نتأمل قوله تعالى:﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾[4]. فالعلم بأنواعه يجب أن يكون محلاً لرضاه (سبحانه وتعالى) كي يسمو بصاحبه نحو الكمالات المبتغاة، وضمان ذلك في التأسيس الموضوعي على القرآن الكريم وسيرة المعصومين عليهم السلام دائماً، وهذا يحتاج إلى نفس مستقرة لا تتأثر بتموجات الحياة.

لقد جعل الله تعالى الطريق إلى (منطق الصواب) أثراً مترتباً على تأثير القوة والنزاهة الإدراكية، ومفتاح ذلك بيّنه الإمام الصادق عليه السلام في الحديث الآتي:

عَنْ سَمَاعَةَ بْنِ مِهْرَانَ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام وَعِنْدَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ مَوَالِيهِ فَجَرَى ذِكْرُ الْعَقْلِ وَ الْجَهْلِ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: اعْرِفُوا الْعَقْلَ وَ جُنْدَهُ وَالْجَهْلَ وَجُنْدَهُ تَهْتَدُوا.

قَالَ سَمَاعَةُ: فَقُلْتُ جُعِلْتُ فِدَاكَ لَا نَعْرِفُ إِلَّا مَا عَرَّفْتَنَا.

فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ الْعَقْلَ وَهُوَ أَوَّلُ خَلْقٍ مِنَ الرُّوحَانِيِّينَ عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ مِنْ نُورِهِ فَقَالَ لَهُ: أَدْبِرْ فَأَدْبَرَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَقْبِلْ فَأَقْبَلَ.

١- سورة يوسف ٢٢

٢- سورة طه ١٤٤

٣- سورة العنكبوت ٤٣

٤- سورة الأعراف ١٧٥ . الآية تتحدث عن بلعم بن باعوراء وهو عالم من علماء بني إسرائيل في زمن نبي الله موسى عليه السلام وفرعون. كان من عظماء العلماء والعباد الروحانيين وقد عرف شيئا من اسم الله الأعظم فكان مجاب الدعوة، إلا أنه مال إلى فرعون فأُخذ منه الاسم الأعظم.

فَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: خَلَقْتُكَ خَلْقاً عَظِيماً، وَكَرَّمْتُكَ عَلَى جَمِيعِ خَلْقِي.

قَالَ: ثُمَّ خَلَقَ الْجَهْلَ مِنَ الْبَحْرِ الْأُجَاجِ ظُلْمَانِيّاً فَقَالَ لَهُ: أَدْبِرْ فَأَدْبَرَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَقْبِلْ فَلَمْ يُقْبِلْ.

فَقَالَ لَهُ: اسْتَكْبَرْتَ.

فَلَعَنَهُ ثُمَّ جَعَلَ لِلْعَقْلِ خَمْسَةً وَسَبْعِينَ جُنْداً، فَلَمَّا رَأَى الْجَهْلُ مَا أَكْرَمَ اللَّهُ بِهِ الْعَقْلَ وَمَا أَعْطَاهُ أَضْمَرَ لَهُ الْعَدَاوَةَ، فَقَالَ الْجَهْلُ: يَا رَبِّ هَذَا خَلْقٌ مِثْلِي خَلَقْتَهُ وَكَرَّمْتَهُ وَقَوَّيْتَهُ، وَأَنَا ضِدُّهُ وَلَا قُوَّةَ لِي بِهِ، فَأَعْطِنِي مِنَ الْجُنْدِ مِثْلَ مَا أَعْطَيْتَهُ.

فَقَالَ: نَعَمْ. فَإِنْ عَصَيْتَ بَعْدَ ذَلِكَ أَخْرَجْتُكَ وَجُنْدَكَ مِنْ رَحْمَتِي.

قَالَ قَدْ رَضِيتُ. فَأَعْطَاهُ خَمْسَةً وَ سَبْعِينَ جُنْداً.

فَكَانَ مِمَّا أَعْطَى الْعَقْلَ مِنَ الْخَمْسَةِ وَالسَّبْعِينَ الْجُنْدَ:

الْخَيْرُ وَهُوَ وَزِيرُ الْعَقْلِ، وَجَعَلَ ضِدَّهُ الشَّرَّ وَ هُوَ وَزِيرُ الْجَهْلِ.

وَالْإِيمَانُ وَضِدَّهُ الْكُفْرَ، وَالتَّصْدِيقُ وَضِدَّهُ الْجُحُودَ، وَالرَّجَاءُ وَضِدَّهُ الْقُنُوطَ، وَالْعَدْلُ وَضِدَّهُ الْجَوْرَ، وَالرِّضَا وَضِدَّهُ السُّخْطَ، وَالشُّكْرُ وَضِدَّهُ الْكُفْرَانَ، وَالطَّمَعُ وَضِدَّهُ الْيَأْسَ، وَالتَّوَكُّلُ وَضِدَّهُ الْحِرْصَ، وَالرَّأْفَةُ وَضِدَّهَا الْقَسْوَةَ، وَالرَّحْمَةُ وَضِدَّهَا الْغَضَبَ، وَالْعِلْمُ وَضِدَّهُ الْجَهْلَ، وَالْفَهْمُ وَضِدَّهُ الْحُمْقَ، وَالْعِفَّةُ وَضِدَّهَا التَّهَتُّكَ، وَالزُّهْدُ وَضِدَّهُ الرَّغْبَةَ، وَالرِّفْقُ وَضِدَّهُ الْخُرْقَ، وَالرَّهْبَةُ وَضِدَّهُ الْجُرْأَةَ، وَالتَّوَاضُعُ وَضِدَّهُ الْكِبْرَ، وَالتُّؤَدَةُ وَضِدَّهَا التَّسَرُّعَ، وَالْحِلْمُ وَضِدَّهَا السَّفَهَ، وَالصَّمْتُ وَضِدَّهُ الْهَذَرَ، وَالِاسْتِسْلَامُ وَضِدَّهُ الِاسْتِكْبَارَ، وَالتَّسْلِيمُ وَضِدَّهُ الشَّكَّ، وَالصَّبْرُ وَضِدَّهُ الْجَزَعَ، وَالصَّفْحُ وَضِدَّهُ الِانْتِقَامَ، وَالْغِنَى وَضِدَّهُ الْفَقْرَ، وَالتَّذَكُّرُ وَضِدَّهُ السَّهْوَ، وَالْحِفْظُ وَضِدَّهُ النِّسْيَانَ، وَالتَّعَطُّفُ وَضِدَّهُ الْقَطِيعَةَ، وَالْقُنُوعُ وَضِدَّهُ الْحِرْصَ، وَالْمُؤَاسَاةُ وَضِدَّهَا الْمَنْعَ، وَالْمَوَدَّةُ وَضِدَّهَا الْعَدَاوَةَ، وَالْوَفَاءُ وَضِدَّهُ الْغَدْرَ، وَالطَّاعَةُ وَضِدَّهَا الْمَعْصِيَةَ، وَالْخُضُوعُ وَضِدَّهُ التَّطَاوُلَ، وَالسَّلَامَةُ وَضِدَّهَا الْبَلَاءَ، وَالْحُبُّ وَضِدَّهُ الْبُغْضَ، وَالصِّدْقُ وَضِدَّهُ الْكَذِبَ، وَالْحَقُّ وَضِدَّهُ الْبَاطِلَ، وَالْأَمَانَةُ وَضِدَّهَا الْخِيَانَةَ، وَالْإِخْلَاصُ وَضِدَّهُ الشَّوْبَ، وَالشَّهَامَةُ وَضِدَّهَا الْبَلَادَةَ، وَالْفَهْمُ وَضِدَّهُ الْغَبَاوَةَ، وَالْمَعْرِفَةُ وَضِدَّهَا الْإِنْكَارَ، وَالْمُدَارَاةُ وَضِدَّهَا الْمُكَاشَفَةَ، وَسَلَامَةُ الْغَيْبِ وَضِدَّهَا الْمُمَاكَرَةَ، وَالْكِتْمَانُ وَضِدَّهُ الْإِفْشَاءَ، وَالصَّلَاةُ وَضِدَّهَا الْإِضَاعَةَ، وَالصَّوْمُ وَضِدَّهُ الْإِفْطَارَ، وَالْجِهَادُ وَضِدَّهُ النُّكُولَ،

وَالْحَجُّ وَضِدَّهُ نَبْذَ الْمِيثَاقِ، وَصَوْنُ الْحَدِيثِ وَضِدَّهُ النَّمِيمَةَ، وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ وَضِدَّهُ الْعُقُوقَ، وَالْحَقِيقَةُ وَضِدَّهَا الرِّيَاءَ، وَالْمَعْرُوفُ وَضِدَّهُ الْمُنْكَرَ، وَالسَّتْرُ وَضِدَّهُ التَّبَرُّجَ، وَالتَّقِيَّةُ وَضِدَّهَا الْإِذَاعَةَ، وَالْإِنْصَافُ وَضِدَّهُ الْحَمِيَّةَ، وَالتَّهْيِئَةُ وَضِدَّهَا الْبَغْيَ، وَالنَّظَافَةُ وَضِدَّهَا الْقَذَرَ، وَالْحَيَاءُ وَضِدَّهَا الْجَلَعَ، وَالْقَصْدُ وَضِدَّهُ الْعُدْوَانَ، وَالرَّاحَةُ وَضِدَّهَا التَّعَبَ، وَالسُّهُولَةُ وَضِدَّهَا الصُّعُوبَةَ، وَالْبَرَكَةُ وَضِدَّهَا الْمَحْقَ، وَالْعَافِيَةُ وَضِدَّهَا الْبَلَاءَ، وَالْقَوَامُ وَضِدَّهُ الْمُكَاثَرَةَ، وَالْحِكْمَةُ وَضِدَّهَا الْهَوَاءَ، وَالْوَقَارُ وَضِدَّهُ الْخِفَّةَ، وَالسَّعَادَةُ وَضِدَّهَا الشَّقَاوَةَ، وَالتَّوْبَةُ وَضِدَّهَا الْإِصْرَارَ، وَالِاسْتِغْفَارُ وَضِدَّهُ الِاغْتِرَارَ، وَالْمُحَافَظَةُ وَضِدَّهَا التَّهَاوُنَ، وَالدُّعَاءُ وَضِدَّهُ الِاسْتِنْكَافَ، وَالنَّشَاطُ وَضِدَّهُ الْكَسَلَ، وَالْفَرَحُ وَضِدَّهُ الْحَزَنَ، وَالْأُلْفَةُ وَضِدَّهَا الْفُرْقَةَ، وَالسَّخَاءُ وَضِدَّهُ الْبُخْلَ.

فَلَا تَجْتَمِعُ هَذِهِ الْخِصَالُ كُلُّهَا مِنْ أَجْنَادِ الْعَقْلِ إِلَّا فِي نَبِيٍّ، أَوْ وَصِيِّ نَبِيٍّ، أَوْ مُؤْمِنٍ قَدِ امْتَحَنَ اللَّهُ قَلْبَهُ لِلْإِيمَانِ، وَأَمَّا سَائِرُ ذَلِكَ مِنْ مَوَالِينَا فَإِنَّ أَحَدَهُمْ لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونَ فِيهِ بَعْضُ هَذِهِ الْجُنُودِ حَتَّى يَسْتَكْمِلَ وَ يَنْقَى مِنْ جُنُودِ الْجَهْلِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَكُونُ فِي الدَّرَجَةِ الْعُلْيَا مَعَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْصِيَاءِ، وَإِنَّمَا يُدْرَكُ ذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ الْعَقْلِ وَجُنُودِهِ، وَبِمُجَانَبَةِ الْجَهْلِ وَجُنُودِهِ. وَفَّقَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ لِطَاعَتِهِ وَمَرْضَاتِهِ.[1]

فإذا اقترنت هذه الكتيبة العقلية بنية خالصة لوجه الله سبحانه وتعالى، تمكنا حتماً من امتلاك (منطق الصواب) بتوفيق من الله تعالى، فهو ليس إلا العلم الصادق في بعده الذهني والعملي.

ملبسهم الاقتصاد:

يقول الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾[2]، وقال تبارك ذكره ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾[3] .

اللباس في الأصل هو ما يواري الجسد من ثوب أو قميص أو ما شابه، وبما أن غايته الأولى هي المواراة والإحاطة، صار من الممكن أن نستخدمه مجازاً في الأمور التي من شأنها أن تواري

١- الكافي ج١ ص ٢٠

٢- سورة النحل ١١٢

٣- سورة الاعراف ٢٦

أو تحيط بأمور أخرى، ومن المناسب في التعامل مع بيان الأئمة عليهم السلام الاهتمام باستظهار الأقصى من المدلول الشمولي لألفاظهم لشمولية وجودهم عليهم السلام واستيعابهم كل طبقات البشر ومستوياتهم الفكرية.

لذا فمن الموافق تطبيق اللفظ على معناه الحقيقي وكذلك ما يمكن من مجازات ذات بال.

كيف للإنسان أن يكون مقتصداً؟

القصد هو استقامة الطريق[1]، والاستقامة ضد الاعوجاج الذي هو إما إفراط في الأمر أو تفريط، وبالتالي فالاقتصاد هو حد الاعتدال بينهما.

يذكر الأخلاقيون أن الأخلاق الإنسانية تنتهي إلى ثلاث قوى عامة في الإنسان هي الباعثة للنفس على الإقدام الإفعالي، وهذه القوى هي:

الشهوية: وتصدر عنها الأفعال المنسوبة إلى جلب المنفعة كالأكل والشرب واللبس وغيرها، وحد الاعتدال (الاقتصاد) في هذه القوة يسمى عفة، والجانبان في الإفراط والتفريط، هما الشره والخمود.

الغضبية: وتصدر عنها الأفعال المنسوبة إلى دفع المضرّة كدفاع الإنسان عن نفسه وعرضه وماله ونحو ذلك، وحد الاعتدال في هذه القوة هي الشجاعة، والجانبان هما التهور والجُبْن.

النطقية الفكرية: وتصدر عنها الأفعال المنسوبة إلى التصور والتصديق الفكري، كتأليف القياس وإقامة الحجة وغير ذلك، وحد الاعتدال في هذه القوة تسمى الحكمة، والجانبان هما الجربزة والبلادة.

فينبغي للعاقل أن يروض القوة الشهوية بالقناعة، فلا تزيد عن حد الحاجة ولا تقصر عنها وإنما يأخذ ما يسدها فقط، وهنا نقول على سبيل المثال:

ما الفرق بين أن تسكن أسرة تتكون من خمسة أفراد في منزل بعشر غرف وأخرى في منزلٍ آخر بأربع غرف؟

1- معجم لسان العرب ج٣ ص ٣٥٣

الأولى ستوزع الغرف على النحو التالي:

الزوج والزوجة في غرفة، والأبناء كل واحد منهم في غرفة وستبقى سبع غرف بلا داعٍ حقيقي.

الأسرة الثانية:

كالأسرة الأولى بالضبط، بل تتميز عنها بتوفير سبع غرف أخرى.

ومثال آخر:

ما الفرق المعتبر بين أن ينام الإنسان على سرير ضمن غرفة تزيد قيمتها عن ألف دينار، وبين نومه على مفرش قطني مع الاستغناء عن السرير وطاولة التسريحة وماشابه من كماليات لا داعي لوجودها؟

وقس على ذلك بالنسبة للملبس والمأكل والمشرب، و نحوه مما يحتاجه الإنسان.

أما القوة الغضبية فيحدد معالمها الإنسانية حديث الرسول صلى الله عليه وآله: ''ثلاث خصال من كن فيه استكمل خصال الإيمان: إذا رضي لم يدخله رضاه في باطل، وإذا غضب لم يخرجه الغضب من الحق، وإذا قدر لم يتعاطَ ما ليس له''[1].

من الواضح أنّ الغضب طبيعة إنسانية وقد يصدر من المؤمن بشرط ألاّ يبعده عن الصراط الحق، ويتحقق المقصود بتطبيق قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾[2]، وقد يكون ردع الغضب سبيلاً للتقوى، لقوله تعالى ﴿ وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾[3]، وبالتالي فإن العفو عند الغضب والمقدرة يمثل أروع صور الاقتصاد في القوة الغضبية.

وفي القوة النطقية الفكرية يكشف لنا المولى تبارك ذكره عن حقيقة يجب أن نضعها نصب أعيننا فلا نتجاوزها قيد أنملة، وهي قوله تعالى:﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[4].

١- الكافي ج٢ ص٢٣٩

٢- سورة الشورى ٣٧

٣- سورة البقرة ٢٣٧

٤- سورة الإسراء ٨٥

فمع العلم بأنّ الآية الكريمة قد نزلت في اليهود الذين سألوا الرسول صلى الله عليه وآله عن الروح، إلا أنه لا تعارض في شموليتها لكافة البشر.

حُجبت عن الإنسان الكثير من العلوم التي إن خاض معتركها خرج عن جادة الهدى والرشاد، كالتوغل في ذات الله سبحانه وتعالى وما لا نملك لمقدماته، كتلك البحوث الخارجة بطبعها عن القدرة الإدراكية التي خص الله تعالى بها الانسان مثل التفكير فيما وراء الزمان والمكان.

لهذا كان طلب العلم فريضة، ولكنه العلم الذي يقوّي الإيمان ويرتقي بالإنسان وفكره، وليس العلم الذي يجعل العقل تائهاً بين أمور هو بطبعه لا يقدر على إدراكها، والمقنن لهذه القوة يتمثل في الالتزام بما أوصى به الإمام الباقر عليه السلام لسعد الخفاف عندما قال: «يا سعد تعلموا القرآن»[1]، فلو أُخِذت علوم القرآن من مصادرها، لكانت المرشد – المعصوم من الخطأ – إلى طريق التقوى.

ما مر كان مقدمة تأصيلية للإجابة على سؤالٍ محتملٍ جداً، و هو: لماذا لا نحمل كلام الإمام عليه السلام على ظاهره فيكون المراد هو الاقتصاد في اللبس بمعنى الاقتصاد فيما يلبسه المؤمن من ثياب؟

في مقام الإجابة أقول:

لكل فعل يصدر عن الإنسان دلالة خاصة تتأكد بتكرر صدور نفس الفعل، وطرفُ الدلالةِ ثقافةٌ تدخل في تركيب عقلية من يصدر عنه الفعل.

بالتأسيس على هذه الحقيقة السلوكية تتولد عندنا معرفة خاصة بأن لكل تصرف يصدر عن إنسان دخْلٌ مباشر في مستواه الثقافي وتوجهه الفكري، وفي قضية (ملبسهم الاقتصاد) يتضح أن لبس السيء مع القدرة على الأنسب دال على وجود خلل ثقافي مثل البخل أو سوء التقدير، وهذا داخل بلا شك في دائرة القوة الشهوية، كما أن لبس الزائد عن المناسب يدل على خلل عنوانه الإفراط على خط نفس القوة الشهوية أيضاً وقِس على ذلك، حيث أنّ هذه القوى الثلاث تمثل المنشأ الأصل لما يصدر عن الإنسان من أفعال وتصرفات بين قول وفعل وتقرير .. فتأمل جيداً.

١- الكافي ج٢ ص ٥٩٦

لذا فإن معالجة المنشأ بإرجاع مؤشراته على مستوى الممارسة إلى نقطة الاعتدال هو المصحح الأوحد للسلوك ونتيجته تحقيق الاقتصاد سواء في اللبس بمعنى الثياب أو في اللبس بمعنى الساتر لكل مالا يُراد الكشف عنه.

مشيهم التواضع:

كما في اللبس وشمولية معناه نفهم المراد من المشي أيضا. إن التواضع في المشي الذي يُحمَل على حركة الرجلين الناقلة للإنسان يحد من بلاغة الكلمة لعدم لزوم دخول غيره في مفهوم التواضع، ثم إن موعظة أمير المؤمنين عليه السلام جاءت في وصف المتقين، وذلك يعني إظهار الباطن المعنوي المنعكس على الظاهر، وبما أن علياً عليه السلام هو القرآن الناطق، صار بالضرورة أن يتوافق كلامه عليه السلام مع المعاني والمفاهيم القرآنية، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴾[1] .

نشير أولاً إلى أن المرح يمثل جانب الإفراط في الشعور بالفرح، أي أن المرح هو الخروج عن حد الاعتدال، ويقول العلامة الطباطبائي قدس سره في تفسير الآية الكريمة ما نصه:

وقوله: ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا﴾ نهي عن استعظام الإنسان لنفسه بأكثر مما هو عليه لمثل البطر والأشر والكبر والخيلاء، وإنما ذكر المشي في الأرض مرحاً لظهور ذلك فيه».

هنا نقول بأن المشي بخلاف التواضع إنما يكون لأحد سببين:

التركيبة الجسمانية: كعلو الصدر والتباعد في ما بين المنكبين وما إلى ذلك من أمور خارجة عن إرادة الإنسان، فلا حول له فيها ولا قوة.

أما الثاني فهو الشعور بالعلو والأفضلية على الآخرين، وهذا النوع هو الذي يحاربه الله سبحانه وتعالى وأهل بيت الرسالة عليهم السلام .

إنّ هذا الأخير ترى مشيه (سلوكه) في العمل وقد طغت عليه صبغة الأنا، فلا يرى إلا نفسه ولا يأخذ بالرأي الآخر، بل ربما استصغر الجميع فحَسِبَ نفسه مضرباً للأمثال.

١- سورة الإسراء ٣٧

أما بين الأصحاب والمعارف فتلاحظ عليه أنه لا يستغني عن أن يكون محط الأنظار، وذلك إما بفرض نفسه متحدثاً وخطيباً، أو بسكوته وعدم مشاركته للآخرين استصغاراً منه لهم، وكذلك في البيت والسوق وهلُّم جراً، حتى تظهر هذه الدفائن النفسانية على مشيته الحركية التي أشبه ما تكون بجمل قد أُعجِبَ بنظرته العلوية ناسياً عيوبه التي تضرب بها الأمثال.

وفي هذا السياق يقول مولانا أمير المؤمنين عليه السلام لطالب العلم:

يَا طَالِبَ الْعِلْمِ إِنَّ الْعِلْمَ ذُو فَضَائِلَ كَثِيرَةٍ، فَرَأْسُهُ التَّوَاضُعُ، وَعَيْنُهُ الْبَرَاءَةُ مِنَ الْحَسَدِ، وَأُذُنُهُ الْفَهْمُ، وَلِسَانُهُ الصِّدْقُ، وَحِفْظُهُ الْفَحْصُ، وَقَلْبُهُ حُسْنُ النِّيَّةِ، وَعَقْلُهُ مَعْرِفَةُ الْأَشْيَاءِ وَالْأُمُورِ، وَيَدُهُ الرَّحْمَةُ، وَرِجْلُهُ زِيَارَةُ الْعُلَمَاءِ، وَهِمَّتُهُ السَّلَامَةُ، وَحِكْمَتُهُ الْوَرَعُ، وَمُسْتَقَرُّهُ النَّجَاةُ، وَقَائِدُهُ الْعَافِيَةُ، وَمَرْكَبُهُ الْوَفَاءُ، وَسِلَاحُهُ لِينُ الْكَلِمَةِ، وَسَيْفُهُ الرِّضَا، وَقَوْسُهُ الْمُدَارَاةُ، وَجَيْشُهُ مُحَاوَرَةُ الْعُلَمَاءِ، وَمَالُهُ الْأَدَبُ، وَذَخِيرَتُهُ اجْتِنَابُ الذُّنُوبِ، وَزَادُهُ الْمَعْرُوفُ، وَمَاؤُهُ الْمُوَادَعَةُ، وَدَلِيلُهُ الْهُدَى، وَرَفِيقُهُ مَحَبَّةُ الْأَخْيَارِ.

وفي قصة ذات مضامين عالية جداً يقول الإمام الصادق عليه السلام :

أَرْسَلَ النَّجَاشِيُّ إِلَى جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَأَصْحَابِهِ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ وَهُوَ فِي بَيْتٍ لَهُ جَالِسٌ عَلَى التُّرَابِ وَعَلَيْهِ خُلْقَانُ الثِّيَابِ، قَالَ: فَقَالَ جَعْفَرٌ عليه السلام فَأَشْفَقْنَا مِنْهُ حِينَ رَأَيْنَاهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، فَلَمَّا رَأَى مَا بِنَا وَتَغَيُّرَ وُجُوهِنَا قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَصَرَ مُحَمَّداً وَ أَقَرَّ عَيْنَهُ، أَلَا أُبَشِّرُكُمْ؟

فَقُلْتُ: بَلَى أَيُّهَا الْمَلِكُ.

فَقَالَ: إِنَّهُ جَاءَنِي السَّاعَةَ مِنْ نَحْوِ أَرْضِكُمْ عَيْنٌ مِنْ عُيُونِي هُنَاكَ، فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ نَصَرَ نَبِيَّهُ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله وَأَهْلَكَ عَدُوَّهُ وَأُسِرَ فُلَانٌ وَ فُلَانٌ وَ فُلَانٌ الْتَقَوْا بِوَادٍ يُقَالُ لَهُ بَدْرٌ، كَثِيرِ الْأَرَاكِ لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ حَيْثُ كُنْتُ أَرْعَى لِسَيِّدِي هُنَاكَ وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي ضَمْرَةَ.

فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: أَيُّهَا الْمَلِكُ فَمَا لِي أَرَاكَ جَالِساً عَلَى التُّرَابِ وَعَلَيْكَ هَذِهِ الْخُلْقَانُ؟

فَقَالَ لَهُ: يَا جَعْفَرُ إِنَّا نَجِدُ فِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى عِيسَى عليه السلام أَنَّ مِنْ حَقِّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يُحْدِثُوا لَهُ تَوَاضُعاً عِنْدَ مَا يُحْدِثُ لَهُمْ مِنْ نِعْمَةٍ، فَلَمَّا أَحْدَثَ اللَّهُ عَزَّ وَ جَلَّ لِي نِعْمَةً بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله أَحْدَثْتُ لِلَّهِ هَذَا التَّوَاضُعَ.

فَلَمَّا بَلَغَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله قَالَ لِأَصْحَابِهِ: إِنَّ الصَّدَقَةَ تَزِيدُ صَاحِبَهَا كَثْرَةً، فَتَصَدَّقُوا يَرْحَمْكُمُ اللَّهُ،

وَإِنَّ التَّوَاضُعَ يَزِيدُ صَاحِبَهُ رِفْعَةً، فَتَوَاضَعُوا يَرْفَعْكُمُ اللَّهُ، وَإِنَّ الْعَفْوَ يَزِيدُ صَاحِبَهُ عِزّاً فَاعْفُوا يُعِزَّكُمُ اللَّهُ.

كما أنه عليه السلام يقول:

"مِنَ التَّوَاضُعِ أَنْ تَرْضَى بِالْمَجْلِسِ دُونَ الْمَجْلِسِ، وَأَنْ تُسَلِّمَ عَلَى مَنْ تَلْقَى، وَأَنْ تَتْرُكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كُنْتَ مُحِقّاً، وَأَنْ لَا تُحِبَّ أَنْ تُحْمَدَ عَلَى التَّقْوَى".

قد يصعب حل مشكلة التكبر والعُجب والغرور إذا كانت هدفاً تسعى بعض الجهات لتحقيقه في مجتمعات صغيرة لأغراض دنيئة كما هو الحاصل اليوم، حيث أنّ الشعب الفلاني يفتخر بتاريخه (الذي لو حققت فيه لوجدته مخزياً)، وفي مكانٍ آخر يعتقد مواطنو البلد الفلاني بأنهم الأفضل وبإمكانهم أن يشتروا حتى النفوس بأموالهم التي أنعم الله بها عليهم.

إن هذه الحالة في المجتمع عمل المفسدون على ترسيخها وتأصيلها، لأنها تجر معها بالتلازم ذلك التخدير العقلي الذي يريدونه لنا، في حين أن الإمام الصادق عليه السلام يقول: "لكل شيء مطيّة، ومطيّة العقل التواضع"[١].

التواضع هو إنزال النفس في مرتبة الأدنى للشعور بحتمية وجود الأعلم والأغنى والأجسم والأذكى وما نحو ذلك، وفق الكل هناك الله عز وجل، فعلامَ الغرور والتكبر والاعتداد بالأصل والنسب، والحال أن الذل والهوان قد يتسلط على أي شخص وفي أي وقت من غير سابق إنذار، والشواهد على ذلك كثيرة جداً، فلكم في النمرود وفرعون آية، والطلقاء من قريش موعظة.. واليوم عندنا شاه إيران وصدام العراق وتشاوتشيسكو رومانيا، والحبل على الجرار مادامت العيون لا ترى أبعد من الأنوف!!

لِمَ لا يتواضع الإنسان وهو يعيش الفقر والنقص بعينهما؟

هل يتصور صاحب القصور والبساتين أن تهّب على الدنيا أزمة جفاف فلا يجد حتى الماء الذي يستحم ويغتسل به عن قذاراته ليكون في حال واحد مع من يتعالى عليهم؟

من يقدر على رفع نقائص الإنسان غير الله الواحد القهار؟

لا أحد على الإطلاق، لذا فمن العقل أن يبقى الإنسان متواضعاً متذللاً لله عز وجل وبين الناس، حتى يحافظ على حصانته الإيمانية ويجنب نفسه شماتة الشامتين عندما يقع الفأس في الرأس.

١- الكافي ج١ ص١٥

(كيف يكون السمع والبصر وارثَين للمتقين؟)

قوله عليه السلام:

«غضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ»

البصر:

يقول الله تبارك ذكره:﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[1].

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان للجنة التي أعدّها له إظهاراً لكرمه ورحمته عزّ وجل، ولكن الإنسان خالف قوانين الجنة مما استوجب إخراجه منها عقاباً و إصلاحاً بأن يهبط إلى الأرض خليفة لله تبارك ذكره،﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[2]، ليقيم قانون السماء ويخضع له في عملية إعادة تأهيل إن نجح فيها أعيد إلى الجنة التي خُلِقَ لها، وإن فشل ثانية فعذاب الجحيم.

إنَّ هذا المقام الذي أُنيط بالإنسان يحتاج إلى قانون يضمن له المسلك في طريق العودة وهو الدين المقنن لحركة الإنسان في هذه الدنيا، والضامن لرضا الله عز وجل وبالتالي الفوز بعودة ميمونة إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، وبذلك تكون النتيجة:

المحقق الأوحد للخلافة الإلهية في الأرض هو إقامة الدين، ولذلك كان:﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[3].

١- سورة الإسراء ٣٦

٢- - سورة البقرة ٣٠

٣- سورة الذاريات ٥٦

ندرك الآن أن الإنسان إنما خلق في هذه الدنيا من أجل غرض واحد فقط هو العبادة كطريق لتحقيق الخلافة الإلهية، وبما أنه مركب من روح ومادة، وبما أن خروج شيء من مركبه خارج دائرة العبادة يعد خرقاً لما خُلِق من أجله، كانت النتيجة كالتالي:

كل ملازمات الإنسان من أعضاء كالفم، واليد، والأحشاء، والعين، والقدم وما إلى ذلك، إنما خلقها الله تعالى لأحد غرضين:

١- العبادة

٢- المساعدة على العبادة

وما دون ذلك يُخرِجُ الإنسان عن الغرض من الخلق، فالوظيفة الأساسية لجوارح الإنسان هي العمل على إيصاله بأمان إلى الله جل ذكره، ولا يخفى أنها — الجوارح - لا تعمل ولا تتحرك أبداً إلا بإيعاز من العقل، فهي في واقع الأمر تعمل كمؤشر دال على شخصية الإنسان وسلوكه وأخلاقه.

ولا بأس قبل التوغل في كلام الأمير عليه السلام بالإشارة إلى أن الطهارة المعنوية للإنسان إنما هي عملية تبادلية بين الباطن (النفس)، وبين الخارج (السمع، والنظر، واللسان)، حيث أنّ طهارة الباطن تعين على طهارة الخارج والعكس صحيح، وفي ذلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام: "عباد الله اتقوا الله وغضوا الأبصار واخفضوا الأصوات و أقلوا الكلام"[١]، فالمستفاد من كلامه عليه السلام أن التقوى وغض البصر وخفض الصوت وقلة الكلام، كل واحدة منها تعتبر مقدمة للأخرى دون إلزام.

ثم إن المولى تبارك وتعالى قد بيّن لنا وظيفة أخرى للأعضاء والجوارح تظهر يوم القيامة حين قال: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٢] .

فشهادة الأعضاء أو القوى يوم القيامة هو ذكرها لِما تحملته في الدنيا من معصية صاحبها، فهي شهادة أداء لما تحملته.

بعد هذه الإثارة نعّم بأنه من الواجب الإيماني والتقوائي أن يكون غض البصر ابتغاءً لمرضاة الله سبحانه وتعالى، واتقاءً لسخطه وعذابه.

١- الكافي ج٥ ص٣٨

٢- سورة فصلت ٢٠

مساوئ المخالفة:

يصدر العقل أحكامه بناءً على الإشارات الجامدة التي يتلقاها من الحواس عندما يوافق بينها وبين الصور الذهنية المختارة، وتلك الأحكام تعكس القوى الإدراكية ودقة الميزان في ذلك العقل المتفاوت المستوى بين فرد وآخر، فإن كان عارفاً بمسائل الحلال والحرام، وخاضعاً لأوامر الله جل وعلا، فإنه يصدر تعليماته للقوة الباصرة — مثلاً — بالغض إذا ما مرّ عليها ما لا يحله الله سبحانه وتعالى، وذلك بعد أن يقلّب الصورة المستقبلة من الخارج بين صور التدين والالتزام، وفي حال استعصى التشخيص عليه فعجز عن التمييز بين الحلال والحرام، فإنه ربما أوقع صاحبه في معصية دون أن يشعر.

لهذا كان من الأسلم للإنسان أن يعوّد نفسه على إرخاء الجفنين وإسدال الرموش تأدباً أمام الله تعالى، فيغض البصر في كل وقت، كي يضمن لنفسه البقاء في دائرة التقوى، فإن أراد النظر بتمعن في شيءٍ ما، لزم أن يركز في ذلك الشيء فقط والغض عمّا دونه.

الشيطان والقوة الباصرة:

يقول الله سبحانه وتعالى في قضية امتناع إبليس عن السجود لآدم عليه السلام:﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[١].

يظهر لنا من سياق الآيات الشريفة أن المعركة التي يخوضها الإنسان منذ خلق آدم عليه السلام إلى قيام يوم الدين إنما بدأت بتكبر إبليس ومعصيته لأمر الله سبحانه وتعالى، فالمعصية هي مفتاح كل عذاب وبلاء، ومن الواضح أن معصية إبليس لم تنتهِ بامتناعه عن السجود، ولكنها استمرت بتحدٍ لئيم منه لآدم عليه السلام وذريته، فأكد بأن يكون الهدف من عمله هو إغواء العباد وإضلالهم بأن يقعد لهم في كل طريق يؤدي إلى الله سبحانه وتعالى.

١- سورة ص ٧٥ ـ ٨٥

أشرنا إلى أن حواس الإنسان وجوارحه تقوم بدور الواسطة التي توصله لله تعالى، ومن البديهي أن احتجاب واحدة منها أو أكثر قد يؤثر على طريق المعرفة والعبودية، لذا كان التسلط الإبليسي على الإنسان يتمثل في محاولة السيطرة على الخطوط المتصلة بين العقل وكل جارحة من الجوارح، ومن هنا تبدأ المعركة بين الحق والباطل.

إن البصر – وهو موضوعنا- يمثل حاسة هي من أهم الحواس التي يستعين بها الإنسان في الاستدلالات الابتدائية والمعارف الأولية، وحجبها يمثل ضربة لا تعادلها ضربة، فالعين تعكس المشاهدات المبصرة في الخارج على مخ الإنسان لتبدأ عملية التحليل، وهذا المخ هو مركز التطبع في بني البشر، فإذا عوَّدته العين على صور الطبيعة من بحار وأشجار وسماء ونحوها، كان في اشتياقٍ دائم لما تَعَوَّدَ عليه، كما أنه يبقى صافياً طاهراً قابلاً للتدبر والتفكر.

وعلى العكس من ذلك إذا ما عودته العين على رؤية المحرمات والمنكرات، فهو ينحسر فيها وينقلب من أداة روحانية إلى معول هدم إبليسي.

إنّ هذه المهلَكَة هي التي يعمل عليها الشيطان الرجيم ويهيؤها دائماً لاستقبال هالكين جدد، وعمله الشيطاني هذا على محورين:

الأول: القضاء على الحياء عند قسم من البشر، والثاني: تزيين ذلك المشهد اللاحيائي في عيون قسم آخر، فيمسك هو بطرف الخيط ليوقع القسمين في المهالك.

أما الحقيقة التي نقف عليها الآن فهي تعرض حاسة النظر عندنا لحرب ضروس من إبليس الذي رفع راية الإصرار على الإطاحة بكل القيم والمبادئ التي أمر بها الله سبحانه وتعالى باتباعها، فلا تنظر إلا لما أُحِلَ لها.

نخلص في هذه المرحلة إلى واقعية القوة الوسواسية لإبليس وأتباعه من شياطين الجن والإنس، وهذه القوة إذا لم يتوفر للإنسان سلاح لمقاومتها وقهرها، يكون الخلل واقعاً في عدل الله سبحانه وتعالى –وهذا محال قطعاً–، وقد أثبت الباري تبارك وتعالى تلك الاستحالة بقوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾[1]، فجعل عزّ وجل غض البصر سلاحاً لمقاومة الهجمات الإبليسية التي تستهدف عقل الإنسان لتقضي على تعقله.

١- سورة النور ٣٠

ما هو غض البصر؟

يقال: غضَّ و أغضى إذا دانى بين جفنيه ولم يلاق، وهذا يوجب – غالباً- عدم التركيز، فالغض هو إرخاء عضلات العين لتضعيف جهاز الاستقبال وبالتالي التقليل من كفاءة الجهاز العاكس للصور المشاهَدة في الخارج، فيتم المطلوب.

والغض إذا سبقه الإيمان بالمعنى المراد، اكتملت أجزاء السلاح وبات جاهزاً لقهر إبليس ودحره شيئاً فشيئاً، حيث أنّ الاستسلام السريع ليس من طبعه، ولكنه ينهزم في حال وجد العبد عازماً ومصرّاً على خوض المعركة بالتوكل على الله سبحانه وتعالى.

كيف لنا أن ننجح في مهمة غض البصر؟

يقول الله جل وعلا: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾[1].

يقع الإنسان – كما أشرنا سابقاً- بين قوتي العقل والشهوة، وقد قال الأمير عليه السلام: «إن الله ركّب في الملائكة عقلاً بلا شهوة، وركّب في البهائم شهوة بلا عقل، وركّب في بني آدم كلتيهما، فمن غلب عقلُه شهوتَه فهو خيرٌ من الملائكة، ومن غلب شهوتُه عقلَه فهو شرٌ من البهائم»[2].

نقف هنا أمام مسألة مهمة ينبغي لنا الالتزام بها وتنميتها إن أردنا طريق التقوى والفوز برضا الله سبحانه وتعالى، ألا وهي الاستغفار المقترن بتجديد التوبة، وقد جاء عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام أَنَّ قَائِلًا قَالَ بِحَضْرَتِهِ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ.

فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ، أَتَدْرِي مَا الِاسْتِغْفَار؟

الِاسْتِغْفَارُ دَرَجَةُ الْعِلِّيِّينَ، وَهُوَ اسْمٌ وَاقِعٌ عَلَى سِتَّةِ مَعَانٍ:

أَوَّلُهَا النَّدَمُ عَلَى مَا مَضَى، وَالثَّانِي الْعَزْمُ عَلَى تَرْكِ الْعَوْدِ إِلَيْهِ أَبَداً، وَالثَّالِثُ أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ حُقُوقَهُمْ حَتَّى تَلْقَى اللَّهَ عَزَّ وَ جَلَّ أَمْلَسَ لَيْسَ عَلَيْكَ تَبِعَةٌ، وَالرَّابِعُ أَنْ تَعْمِدَ إِلَى

١- سورة هود ٥٢

٢- وسائل الشيعة ج٦٥ ص٢٠٩

كُلِّ فَرِيضَةٍ عَلَيْكَ ضَيَّعْتَهَا فَتُؤَدِّيَ حَقَّهَا، وَالْخَامِسُ أَنْ تَعْمِدَ إِلَى اللَّحْمِ الَّذِي نَبَتَ عَلَى السُّحْتِ فَتُذِيبَهُ بِالْأَحْزَانِ حَتَّى يَلْصَقَ الْجِلْدُ بِالْعَظْمِ وَيَنْشَأَ بَيْنَهُمَا لَحْمٌ جَدِيدٌ، وَالسَّادِسُ أَنْ تُذِيقَ الْجِسْمَ أَلَمَ الطَّاعَةِ كَمَا أَذَقْتَهُ حَلَاوَةَ الْمَعْصِيَةِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَقُولُ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ»[1].

نلاحظ أن الأمير عليه السلام أراد أن يُدخِلَ المستغفر في برنامج تصفية من الذنوب ليُفَّعِلَ استغفاره، وبالتالي يصل إلى الفوز بوعد الله جل ذكره الذي وعد به في الآية الكريمة عندما قال: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾[2].

فحاجتنا لزيادة القوة هي حاجة مترتبة على عقد العزم لطرد إبليس، وطرده يحتاج لقوة في الإرادة والصبر والثبات، ولا يكون ذلك إلا بالاستغفار والتوبة، فقوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ﴾[3]، كأنه يقول: (يا قوم اندموا على ما ارتكبتم من معاصي وتركتم من شكر، واعزموا على ترك العود إليه، وأدوا إلى المخلوقين حقوقهم، واقضوا ما فاتكم من فرائض فرضها الله عليكم، وطهروا أبدانكم من الحرام، واجتهدوا في تعويد أبدانكم على العبادة، افعلوا ذلك ليفي الله تعالى لكم بوعده ف ﴿يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾، تلك القوة التي بها نغض البصر عن كل ما حرَّم الله سبحانه وتعالى علينا.

ثم إنّ هذا الاستغفار الذي بينه لنا أمير المؤمنين عليه السلام قد يكون سهلاً يسيراً إذا ما عمدنا لتقوية الأصول والأسس العقلية في ذواتنا، لنتعرف ولو على ذرة من عظمة الله جل وعلا فتكون لنا نِعْمَ المعين على مكائد إبليس القذرة، وقد أشرنا إلى أن أفضل الطرق لتقوية العقل هو طريق العلم الذي طالما تحدث عنه الله سبحانه وتعالى في القرآن الحكيم.

فالواضح الآن أن اجتماع الاستغفار والتوبة والعلم في شخص واحد يؤدي به إلا خير الغض عن المحرمات بحول الله وقوته.

١- وسائل الشيعة ج١٦ ص٧٧

٢- سورة هود ٥٢

٣- سورة هود ٥٢

السمع:

قال الإمام الصادق عليه السلام « وَفَرَضَ عَلَى السَّمْعِ أَنْ يَتَنَزَّهَ عَنِ الِاسْتِمَاعِ إِلَى مَا حَرَّمَ اللَّهُ، وَأَنْ يُعْرِضَ عَمَّا لاَ يَحِلُّ لَهُ مِمَّا نَهَى اللَّهُ عَزَّ و جَلَّ عَنْهُ وَالْإِصْغَاءِ إِلَى مَا أَسْخَطَ اللَّهَ عَزَّ و جَلَّ، فَقَالَ فِي ذَلِكَ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِها وَيُسْتَهْزَأُ بِها فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ ثُمَّ اسْتَثْنَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَوْضِعَ النِّسْيَانِ فَقَالَ: ﴿وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وَقَالَ: ﴿فَبَشِّرْ عِبادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللَّهُ وَ أُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ﴾ وَقَالَ: ﴿وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقالُوا لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ﴾ وَقَالَ: ﴿وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً﴾ فَهَذَا مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَى السَّمْعِ مِنَ الْإِيمَانِ أَنْ لاَ يُصْغِيَ إِلَى مَا لاَ يَحِلُّ لَهُ وَهُوَ عَمَلُهُ وَهُوَ مِنَ الْإِيمَانِ»[1].

لقد جعل الله سبحانه وتعالى كمال سلسلة التفاهم بين البشر في ثلاث حلقات هي: العقل واللسان والسمع.

فبالعقل نختار ونرتب ونمنطق ما نريد إيصاله للآخرين، وباللسان نتلفظ بما أقرته عقولنا، فتسقط تلك الألفاظ التي يتلفظ بها الملقي في عقل المتلقي عن طريق حاسة السمع المتمثلة في الأُذن.

لذلك كان السمع من أهم عوامل تحصيل العلوم، مما حدا بعلماء الطب لابتكار لغة مستحدثة لفاقدي تلك الحاسة، فجعلوهم يسمعون بأبصارهم من خلال لغة «برايت»، وما كان ذلك إلا لإدراكهم مدى أهمية السمع بالنسبة للإنسان، فنحن به نستقبل تفصيلات الأمور وشروحاتها.

ولا تخفى خطورة هذه الحاسة، فهي تلتقط كل شاردة و واردة من صدق وكذب، ومدح وذم، وغيبة ونميمة، وعلم مفيد وما يقابله من ترهات وخزعبلات، إلى آخره...

ومن المعلوم أن في كثير من الأحيان لا يتمكن العقل من تشخيص ما يصله من معلومات عن طريق السمع، فيقع الإنسان في الشبهات والمطبات التي لا يُحمد عقباها.

١- الكافي ج٢ ص٣٥

من هنا وجب بالعقل قبل النقل الالتزام بالمنع قبل الولوج، وذلك باستذكار العناوين التي تتصدر قائمة المحرمات السمعية، كترديد أغنية – مثلاً – أو موسيقى، أو ذكر اسم شخص غير موجود مع ملاحظة بعض القرائن التي تشير إلى أن المجلس سيتحول إلى مجلس غيبة، وما إلى ذلك من مقدمات نضعها كعلامات تفيدنا في التشخيص الإجمالي لما سوف يقال، فنمنع أنفسنا من الاستماع، بالإعراض أو الانصراف أو تغيير دفة الحديث إن أمكن.

(لا يجزعون ولا يمنعون)

قوله عليه السلام:

« **نُزِّلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلَاءِ كَالَّتِي نُزِّلَتْ فِي الرَّخَاءِ**»

إرادة الله سبحانه وتعالى على قسمين:

- الإرادة التكوينية.
- الإرادة التشريعية.

أما الأولى فلا يتدخل طرفٌ غير الله تعالى في تحققها، كالخلق والموت وتعاقب الليل والنهار، وما إلى ذلك من أمور لها عِلّة واحدة فقط، بينما الإرادة التشريعية تتحقق بعلتين، واحدة بعيدة وهي من الله جل وعلا وتختص بتحقق إرادة الإنسان في الاختيار دون التحديد، أما العلة الثانية القريبة فهي من الإنسان وتختص بتحقق الفعل الاختياري.

وبعبارة أخرى:

إن تحقق أفعال الإرادة التشريعية كالصلاة و الصيام والزكاة وما شابه يخضع لإرادة الإنسان التي لولا إرادة الله عز وجل لما توفرت فيه، إذاً، هناك علة إرادة الاختيار وهي العلة البعيدة، وتتبعها ربما طولاً وربما عرضاً علة تحقق الفعل الاختياري وهي العلة القريبة.

فالحسنات والسيئات ترجع جميعها بنظر كلي إلى الله سبحانه وتعالى، وفي ذلك يقول تبارك ذكره: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَا لِهَؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾[1].

١- سورة النساء ٧٨

ولتوضيح الصورة بشكل أكبر نضرب المثال التالي:

قبضت الشرطة على سارق قد تَعَوَّدَ تسوُّر البيوت فأودعته السجن، وقبضت على رجلٍ آخر بريء ظناً منهم بأنه سارق فأودعته السجن أيضاً.

إذا أردنا أن نقارن بين الاثنين فإننا نجد التالي:

الأول يتواجد في السجن لسببين، أولهما لسيئة ارتكبها، وفي ذلك يقول الباري عز وجل: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1]، وثانيهما ليتطهر من تلك السيئة، فهو يعاقب للعلة القريبة كما أنه سوف يخرج برجاء أن يكون طاهراً منها، فالقضية في مجملها حسنه، وكما أشرنا إلى أنه بنظرة كلية نجد بأن كلاً من عند الله.

أما الثاني فقد سُجِنَ لذنب لم يرتكبه أصلاً، وذلك لأن الله سبحانه وتعالى وكما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «يختبر العباد بأنواع الشدائد ويتعبدهم بألوان المجاهد ويبتليهم بضروب المكاره إخراجاً للتكبر من قلوبهم وإسكاناً للتذلل في نفوسهم وليجعل ذلك أبواباً فُتَّحاً إلى فضله وأسباباً ذللاً لعفوه، كما قال: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾[2]-[3] .

والثبات في هذا الامتحان فوزٌ عظيمٌ للعبد، فهو بالتالي نعمة تستوجب الشكر.

إن نفس المتقي فهمت القضية وأدركت أبعاد المعادلة، فحمدت الله سبحانه وتعالى ونزلت في البلاء منزل الرضا الذي تنزله في الرخاء، حيث أنّ القضيتين باتتا في حكم التساوي في جانب رد الفعل المفترض، فالبلاء في ظاهره شر، ولكن باطنه مليء بالخيرات والنعم إذا ما نحن أدركنا حقائق الابتلاءات، أما الرخاء فظاهره خير يوجب الثبات بالحمد والشكر وعدم الغرور والتكبر لكي يكون باطنه كظاهره، أما إذا ساقنا الغرور لجحود أو نسيان فضل الله سبحانه وتعالى، فالنتيجة ستكون دماراً وخسراناً في الدنيا والآخرة، وما أروع قول الإمام الصادق عليه السلام: ‘‘إنما المؤمن الذي إذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق، وإذا رضي لم يدخله رضاه في باطل، وإذا قدر لم يأخذ أكثر مما له’’[4].

١- سورة الروم ٤١

٢- سورة العنكبوت ٢

٣- الكافي ج٤ ص٢٠١

٤- الكافي ج٢ ص٢٣٣

فمن العقل ألا نجزع في البلاء وألا ننسى الله تعالى عند النعم، بل من التقوى أن تتشابه ردود الأفعال في الحالتين، حيث أنّ النفس يجب أن ترضى في الشدائد رضاها في الرخاء، فالله هو الحكيم العليم و لا يفعل إلا ما فيه خير وصلاح هذا الإنسان.

السمع يقود البصر:

تلاحق العينُ السمعَ لتلفت انتباه العقل إلى قدوم أحد – مثلاً- أو لتنبهه من خطر ممكن الوقوع، وربما سمعت الأُذن صوتاً يدل على وقوع معصية ما والعياذ بالله فتتقيّح النفس الأمارة بالسوء سوءً تخاطب به العين بأن تستمتع بما قد سمعته الأُذن، وفي نفس الوقت تكون إشارات النفس الشيطانية قد توزعت على أعصاب الإنسان وجوارحه، فترى الرجلين قد أخذتا بالهرولة صوب الصوت المسموع، وعندها يُلغى العقل وتحل محله ما أسماها الإمام الصادق عليه السلام بالنكراء والشيطنة حينما سأله أحدهم:

« ما العقل ؟

قال عليه السلام : ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان.

فقيل له عليه السلام : فالذي كان في معاوية؟

فقال عليه السلام : تلك النكراء، تلك الشيطنة، وهي شبيهة بالعقل وليست بالعقل[١]..».

تبدأ تلك النكراء الشيطانية بالسيطرة على الفرد شيئاً فشيئاً مع مراعاة أن تبقى الفريسة غير ملتفتة لما هي مقبلة عليه من مهاوي حتى يقع في ظلمات المعصية التي لا تخرجه منها إلا صرخة الاستعاذة بالله السميع العليم من شر الشيطان الغوي الرجيم.

نلاحظ أن كل سيناريو المعصية السابق كان بسبب السمع، فإن سُئل: وكيف نمنع الصوت من الدخول عن طريق الأُذن؟

نقول بأن الطريق الأوحد لبلوغ هذه الغاية هو الترويض الذي يصل بالإنسان إلى النفور من كل صوت ولفظ يغضب الله سبحانه وتعالى. نعم، هو يدخل عن طريق الأُذن ولكنه سوف يصطدم بجبال من الأذكار والصلوات على محمد وآل محمد ليخرج خاسئاً مدحوراً.

١- الكافي ج١ ص١١

وقف السمع على العلم النافع:

وقف السمع على العلم النافع، بمعنى حبسه عليه، والمنفعة في واقع الأمر تبطل نافعيتها إذا افتقرت لمرضاة الله سبحانه وتعالى، فالفلسفة — على سبيل المثال- تعتبر من العلوم المفيدة، ولكن بعض مواضيعها لا توصل الإنسان إلا لخزعبلات قد تقوده للكفر والشرك والعياذ بالله، فلا تكون نافعة، بل مضلة.

والأمير عليه السلام يقول بأن المتقين لا يستمعون إلا لما يفيدهم وينفعهم في طريقهم إلى الله جل وعلا.

نلاحظ أن حبس النظر والسمع عمّا حرم الله تبارك ذكره لا يكون إلا بالعلم الذي أشار إليه عليه السلام في قوله: «منطقهم الصواب»، فكلام أمير المؤمنين عليه السلام كالبنيان الذي لا يشتد إلا باعتماده على أساس متين، وقد اتضح أن العلم هو الأساس المتين الذي يبني عليه المتقون بنيانهم.

(الأرواح الوالهة بحبها والوجِلة بخوفها)

قوله عليه السلام :

« وَ لَوْ لَا الْأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ شَوْقاً إِلَى الثَّوَابِ وَ خَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ»

يبين لنا الإمام صلوات الله وسلامه عليه في هذا المقطع من الموعظة ثلاث حقائق مهمة، هي:

١- الولاية التكوينية لله تعالى.

٢- حال الروح في حال الاشتياق والرهبة.

٣- أحوال المتقين.

ففي قوله عليه السلام : ''ولولا الأجل الذي كتب الله عليهم'' بيان لرجوع الأعمار برمتها إلى الله سبحانه وتعالى، فلا يمكن للعبد أن يطيل أو يقصر في عمره إلا بإذن الله تعالى، وفي ذلك يقول جل وعلا:﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[1] .

فلا يمكن لأحد أن ينهي عُمر أحد إلا إذا كان الأجل قد حان، كما أن الإنسان لا يتمكن من رد الموت عن نفسه إذا جاءه مقبلاً، لقوله عز وجل:﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾[2]، فلا محيص ولا مفر من الموت في الوقت الذي كتبه الله جل شأنه لنا .

إن محتومية الأجل هي التي منعت خروج أرواح المتقين من أجسادهم خوفاً ورهبة وشوقاً..

١ـ سورة النحل ٦١

٢ـ سورة النساء ٧٨

يتأثر الإنسان بالظروف المحيطة به مداً وجزراً تأثراً سلوكياً يظهر على معالمه، فتارة يقال عن الخائف بشدة بأنه يكاد أن يموت من الخوف، وتارة يقال للذي يمر بفرح يغبطه أن قلبه يكاد أن يقفز من صدره، وهذان الأمران ثابتان، فكل إنسان يشعر بخفقان غير طبيعي في قلبه إذا ما هو مر بموقف فرح عارم أو خوف شديد .

فما ببالك بدرجة الفرح التي يطير فيها لب ذاك المشتاق إلى جنة قد قال عنها الباري عز وجل: ﴿وَسَارِعُواْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1] ؟

وما أجمل وصف الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله لبناء قصور الجنة عندما قال لأمير المؤمنين عليه السلام:

«يا علي بناء هذه القصور لبنة من ذهب و لبنة من فضة، ملاطها المسك الأذفر و العنبر، حصباؤها الدر و الياقوت، ترابها الزعفران، كثيبها الكافور .

في صحن كل قصر من هذه القصور أربعة أنهار: نهر من عسل، و نهر من خمر، و نهر من لبن، و نهر من ماء محفوف بالأشجار من المرجان.

على حافتي كل نهر من هذه الأنهار خيم من درة بيضاء لا قطع فيه و لا فصل، قال لها كوني فكانت، يرى باطنها من ظاهرها و ظاهرها من باطنها.

في كل خيمة سرير مفصص بالياقوت الأحمر، قوائمها من الزبرجد الأخضر، على كل سرير حوراء من الحور العين، على كل حور سبعون حلة خضراء، وسبعون حلة صفراء، يرى مخ ساقيها خلف عظمها، وجلدها وحليها وحللها كما ترى الخمرة الصافية في الزجاجة البيضاء مكللة بالجواهر.

لكل حور سبعون ذؤابة، كل ذؤابة بيد وصيف، و بيد كل وصيف مجمر تبخر تلك الذؤابة، يفوح من ذلك المجمر بخار لا يفوح بنار و لكن بقدرة الجبار»[2].

فالعبد إذا خاف الله وراقبه في كل أموره، والتحق بركب المتقين، كان استحضاره لنعيم الجنة أقرب وأجلى، ولا يُلام على اشتياقه الذي لولا الأجل المحتوم لانفصلت روحه عن جسده طمعاً في جنة قد تيقن هو من عجزه عن إدراكها في مخيلته المحدودة، وقد جاء في الحديث

١- سورة آل عمران ١٣٣

٢- بحار الأنوار ج٨ ص١٧٥

«فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[1] .

من بعد هذه الفرحة والاشتياق يدرك المتقون أنهم لا ينالون الجنة بأعمالهم، فهم قد سمعوا أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة العيد وهو يقول: «ثم عمرتم في الدنيا ما كانت الدنيا باقية ما جزت أعمالكم ولو لم تبقوا شيئاً من جهدكم، لنعمه العظام عليكم وهداه إياكم إلى الإيمان ما كنتم لتستحقوا أبد الدهر ما الدهر قائم بأعمالكم جنته ولا رحمته، ولكن برحمته ترحمون وبهداه تهتدون وبهما إلى جنته تصيرون»[2].

وعندها تخيلوا لو أنهم لم يفوزوا برحمة الله التي يدخلون الجنة بها.. فتراءت النارُ أمام أعينهم ...

النار وما أدراك من النار، النار التي يصفها الإمام الصادق عليه السلام في حواره مع أبي بصير، والذي في وصفه كفاية لأن يتفطّر القلب بين الضلوع خوفاً ورهبة...

وإليك نص الحوار:

(عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

قلت له: يا ابن رسول الله خوفني، فإن قلبي قد قسا.

فقال عليه السلام : يا أبا محمد استعد للحياة الطويلة، فإن جبرئيل جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وهو قاطب وقد كان قبل ذلك يجيء وهو متبسم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله :

يا جبرئيل، جئتني اليوم قاطباً !

فقال: يا محمد قد وُضِعَتْ منافِخُ النار.

فقال: وما منافخ النار يا جبرئيل؟

فقال جبرئيل: يا محمد، إن الله عز وجل أمر بالنار فنُفِخ عليها ألف عام حتى ابيضت، ثم نفخ عليها ألف عام حتى احمرت، ثم نفخ عليها ألف عام حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة لو أن قطرة من الضريع قطرت في شراب أهل الدنيا لمات أهلها من نتنها، ولو أن حلقة واحدة

١- - الأمالي - الشيخ الصدوق - ص ٢٨١

٢- من لايحضره الفقيه ج١ ص٥١٨

من السلسلة التي طولها سَبْعُونَ ذِراعاً وضعت على الدنيا لذابت الدنيا من حرها، ولو أن سربالاً من سرابيل أهل النار عُلِّق بين السماء والأرض لمات أهل الدنيا من ريحه.

قال عليه السلام: فبكى رسول الله صلى الله عليه وآله وبكى جبرئيل، فبعث الله إليهما ملكا فقال لهما:

إن ربكما يقرئكما السلام، ويقول: قد أمنتكما أن تذنبا ذنباً أعذبكما عليه.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: فما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله جبرئيل متبسماً بعد ذلك.

ثم قال: إن أهل النار يعظمون النار، وإن أهل الجنة يعظمون الجنة والنعيم، وإن جهنم إذا دخلوها هووا فيها مسيرة سبعين عاماً، فإذا بلغوا أعلاها قمعوا بمقامع الحديد وأعيدوا في دركها، فهذه حالهم، وهو قول الله عز وجل: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، ثم تبدل جلودهم غير الجلود التي كانت عليهم، قال أبو عبد الله عليه السلام: حسبك؟

قلتُ: حسبي، حسبي)[1].

لذلك كانت قلوب وأرواح المتقين تكاد ألاّ تستقر في أجسادهم طرفة عين شوقاً إلى الثواب، وخوفاً من العقاب.

١- بحار الأنوار ج٨ ص٢٨٠

(عظمة الخالق بأعين المتقين تكشف لهم الغطاء)

قوله عليه السلام:

عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ فَهُمْ وَ الْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ وَ هُمْ وَ النَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ «

يمثل لنا الإمام عليه السلام حالة الامتلاء النفسي الكامل التي يتنعم بها المتقون، حيث أنّ المستوى المعرفي الذي وصلوا إليه ما أبقى لممكنٍ مكاناً في أنفسهم، فتحولت تلك المعرفة إلى عشق حقيقي قد استولى على كل المتقي، فأغلق الأبواب أمام كل ما هو دون الخالق تبارك وتعالى.

نلاحظ روعة الإبداع في كلام الأمير عليه السلام حينما أراد إطلاق التصوير وإنفاذه في القلوب بصورة مباشرة ودون تكلف، فربط معرفة الله سبحانه وتعالى بالنفس التي إذا سكنتها تلك المعرفة ضُرِبَ طود من نور خلف العين، فكان كل ما يُرى صغيراً ضئيلاً أمام عظمة المولى جل وعلا.

كيف يُعظَّم الخالق في نفس الإنسان؟

تفنن العلماء وأبدعوا في البحث عن الطرق الموصلة لله سبحانه وتعالى مستعينين بآيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، وأئمة الهدى عليهم السلام كلٌ وفهمه لكنوزها السيّالة..

من هذه الكنوز دعوة الإمام زين العابدين عليه السلام للتأمل في العظمة اللامتناهية لله سبحانه وتعالى..

حينما سأله بعضٌ من قريش: كيف الدعوة إلى الدين؟

فقال عليه السلام:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ..

أَدْعُوكُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ و جَلَّ وَإِلَى دِينِهِ وَجِمَاعُهُ أَمْرَانِ: أَحَدُهُمَا مَعْرِفَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْآخَرُ الْعَمَلُ بِرِضْوَانِهِ، وَإِنَّ مَعْرِفَةَ اللَّهِ عَزَّ و جَلَّ:

أَنْ يُعْرَفَ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، وَالرَّأْفَةِ، وَالرَّحْمَةِ، وَالْعِزَّةِ، وَالْعِلْمِ، وَالْقُدْرَةِ، وَالْعُلُوِّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

وَأَنَّهُ النَّافِعُ الضَّارُّ الْقَاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ، الَّذِي لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ.

وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَا سِوَاهُ هُوَ الْبَاطِلُ.

فَإِذَا أَجَابُوا إِلَى ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ »[1] .

الوحدانية:

وهي كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «التوحيد أن لا تتوهمه»[2].

يا لها من كلمة عظيمة، فالمعلوم أن كل شيء في هذا الوجود قابل للتخيل والتوهم، إلا خالق هذا الوجود، فإن توهمته فقد أشركت به، فمن لا يُتوهم يُصبِحُ الوصول إلى كنهه مستحيلاً، فهل لنا أن ندرك تلك وهذه العظمة لله سبحانه وتعالى؟

ثم أنه كيف لمخلوق أن يتوهم الخالق وهو خالق الزمان والمكان في الوقت الذي لا يمكن لمخلوق أن يكون خارجهما؟

بل وحتى التعبير بال (الخارج) تعبير ركيك لأنه يدل على خلاف المقصود، أوليس (الخارج) متعلق بالمكان، والله تعالى هو خالق المكان؟

لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك !

١- الكافي ج٥ ص٣٦

٢- - نهج البلاغة ج٤ ص١٠٨

الرأفة:

إذا علمنا المعنى الحقيقي للرأفة، تيقنّا بأنها صفة لا يتصف بها إلا الله سبحانه وتعالى، ومن اختص من أصفيائه وأوليائه والمخلَصين من عباده، فالرأفة أرق من الرحمة ولا تكاد تقع في الكراهة، والرحمة قد تقع في الكراهة لمصلحةٍ ما.

إن الله سبحانه وتعالى ﴿رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾[1]، وهو الملك الذي مهما ارتكب عبادُه من ذنوب، ومهما دأبوا على ممارسة المعاصي ومخالفة الأوامر، تبقى أبوابه سبحانه وتعالى مشرعة للطلب والوغول، فيا له من رب رؤوف بعباده !

فهل لنا أن ندرك تلك وهذه العظمة لله سبحانه وتعالى؟

الرحمة:

كيف لمن يتصف بالرأفة ألا يتصف بالرحمة؟

فرحمة الله عز وجل قد نالت كل مخلوق في هذا الوجود..

البركان رحمة للأرض، والقمر رحمة للبحار، والهوام رحمة للطيور، وكل شيء رحمة للإنسان...

و ذاك الملحد لا زال يتمتع بنعم الله بالرغم من إلحاده، وهناك المشرك والمنكِر والمجرم وغيرهم جميعاً يتمرغون في رحمة المولى سبحانه وتعالى.

فهل لنا أن ندرك تلك وهذه العظمة لله سبحانه وتعالى؟

العزة:

إن الله سبحانه وتعالى يرأف بنا ويرحمنا وينعم علينا ويغفر لنا ويعلمنا، وكل ذلك بالرغم من عدم حاجته لنا واستغنائه المطلق عنا، فهو العزيز الذي لا تنفعه طاعة مطيع، ولا تضره معصية عاصٍ.

فهل لنا أن ندرك تلك وهذه العظمة لله سبحانه وتعالى؟

١- سورة النور ٢٠

العلم:

يتعجب الإنسان عندما يقف أمام جهاز الحاسوب الذي يستخدمه، فيبدي إعجابه بذاك العقل الذي صنع بإبداعه هذا الجهاز العجيب، فهل وقف هذا المتعجب متدبراً في عجائب الخلق و آيات الكون، ابتداءً من نفسه ومروراً بكل ما يقع عليه بصره في الأرض وفي السماء؟

هل أحاط الإنسان بكل العلوم المختصة بهذا الوجود وموجوداته؟

إذا كان أعلم العلماء من بني البشر قد عجز عن صنع رِجْلِ نملة كما صنعها الصانع سبحانه وتعالى، فكيف له أن يتخيل علمه المطلق تبارك ذكره بما فيه من ماضٍ وحاضر ومستقبل؟

فهل لنا أن ندرك تلك وهذه العظمة لله سبحانه وتعالى؟

القدرة:

قال الإمام الصادق عليه السلام لابن أبي العوجاء وهو يصف قدرة الله سبحانه وتعالى:

«وَكَيْفَ احْتَجَبَ عَنْكَ مَنْ أَرَاكَ قُدْرَتَهُ فِي نَفْسِكَ نُشُوءَكَ وَلَمْ تَكُنْ، وَكِبرَكَ بَعْدَ صِغَرِكَ، وَقُوَّتَكَ بَعْدَ ضَعْفِكَ، وَضَعْفَكَ بَعْدَ قُوَّتِكَ، وَسُقْمَكَ بَعْدَ صِحَّتِكَ، وَصِحَّتَكَ بَعْدَ سُقْمِكَ، وَرِضَاكَ بَعْدَ غَضَبِكَ، وَغَضَبَكَ بَعْدَ رِضَاكَ، وَحُزْنَكَ بَعْدَ فَرَحِكَ، وَفَرَحَكَ بَعْدَ حُزْنِكَ، وَحُبَّكَ بَعْدَ بُغْضِكَ، وَبُغْضَكَ بَعْدَ حُبِّكَ، وَعَزْمَكَ بَعْدَ أَنَاتِكَ، وَأَنَاتَكَ بَعْدَ عَزْمِكَ، وَشَهْوَتَكَ بَعْدَ كَرَاهَتِكَ، وَكَرَاهَتَكَ بَعْدَ شَهْوَتِكَ، وَرَغْبَتَكَ بَعْدَ رَهْبَتِكَ، وَرَهْبَتَكَ بَعْدَ رَغْبَتِكَ، وَرَجَاءَكَ بَعْدَ يَأْسِكَ، وَيَأْسَكَ بَعْدَ رَجَائِكَ، وَخَاطِرَكَ بِمَا لَمْ يَكُنْ فِي وَهْمِكَ، وَعُزُوبَ مَا أَنْتَ مُعْتَقِدُهُ عَنْ ذِهْنِكَ...

يقول ابن ابي العوجاء: وَمَا زَالَ يُعَدِّدُ عَلَيَّ قُدْرَتَهُ الَّتِي هِيَ فِي نَفْسِي الَّتِي لَا أَدْفَعُهَا»[١] .

هكذا كلما تأملنا وتدبرنا هذه القضايا اللامحاطة في أذهاننا من آلاء الله ونعمه وآياته، كلما استقوت القدرة على استيعاب جهلائية أن يكون الإنسان عاشقاً لغير المولى تبارك ذكره، وبالتبع فإنه لا يدخل قلوبنا خوف ولو بمقدار أنملة من غير العظيم عز وجل، وبذلك تكون

١- الكافي ج١ ص٧٥

العين حدَّ المخلوقين، أما النفس فهي لله سبحانه وتعالى، قد استولى عليها بعظمته عندما أدركنا أنه العظيم.

وما أروع وأدق قول أمير المؤمنين عليه السلام في عظمة الله تبارك شأنه:

«أمره قضاء وحكمة، ورضاه أمان ورحمة، يقضي بعلم، ويعفو بحلم»[1] .

كيف نكون كمن قد رأى الجنة؟

بعد الإيمان بالله وبملائكته ورسله وأوصياء رسله (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين)، وبعد التصديق بالمعاد وما فيه من حساب وجنة ونار، يحصل للإنسان ما يُعرف بالطمأنينة التي تعتبر مفارقتها كآبة ما بعدها كآبة، كما ويتحقق في نفسه مزيجاً من الخوف والهم والحزن، فالإنسان لا هم له في هذه الدنيا إلا الفوز بالسعادة والنعم، ولا خوف له إلا من أن تغتاله الشقوة والنقمة، وقد قرن الله عز وجل السعادة والنعمة بالإيمان وذكر الله، فقال:﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾[2].

إذاً، الإيمان بالله والمحافظة على رطوبة اللسان بذكره عز وجل ينتج عنهما الاطمئنان القلبي وهو الغاية الثانوية التي تتفرع عن غاية الغايات وهي الفوز برضا السماء.

ما هي الأمور الموجبة للقلق وعدم الاستقرار؟

إن الخوف من شر متوقع لا يكون إلا من جرّاء الأعمال السيئة التي يرتكبها الإنسان والتي توجب إمساك الرحمة و انقطاع الفيض من الله جل وعلا، والطريق الوحيد لتجنب مسببات الخوف والقلق في الدنيا هو التقوى، فالإنسان إذا راقب المولى تبارك ذكره وانتصر له في نفسه، فاز بتأييد منه سبحانه وحصلت له الطمأنينة القلبية والاستقرار النفسي.

ثم إنّ التقوى تتنافر مع الجحود والشر والغضب والجهل والحمق والانتقام والمماكرة وما إلى ذلك من رذائل.

١- نهج البلاغة ـ الخطبة ١٦٠

٢- سورة الرعد ٢٨

من هنا نقول بأن الإيمان إذا ما توفر في قلبٍ خالٍ من القبيح حصلت له الطمأنينة بإذن الواحد الأحد، وفي هذه المرحلة يكون الإنسان قد نال نعمة من نعم الجنة وهي التي قال فيها المولى سبحانه وتعالى:﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾[1] .

إن هذا النزع للغل إذا حصل في الدنيا يكون العبد منصباً بصورة كلية على التقرب من الله سبحانه وتعالى، حيث لا يشغله شاغلٌ ولا يلهيه لاهٍ.

وقال بعض العلماء بأنه من الممكن للعبد أن يرى الجنة يقيناً إذا استخلصه الله جل ذكره، والله أعلم.

كيف لمن يرى الجنة أن يرى النار؟

أكثر من إجابة ترد في المقام، وربما كانت جميعها صحيحة إذا ما نحن تأملنا في مضامينها بتجرد .

الرأي الأول يتبنى القاعدة التي تقول بان الأشياء تعرف بأضدادها، فالمتقي إذا كان كمن قد رأى الجنة، يكون كمن قد رأى النار، حيث أنها ضد الجنة، فأصحاب الجنة ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنزِفُونَ﴾ وهم ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَاء مَّسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴾[2] .

في حين أن أصحاب النار والعياذ بالله ﴿ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ ﴾[3]، ثم أنهم ﴿ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴾[4] .

وهكذا كلما دخل المتقي في أجواء الجنة، عرف النار فنفر مما يوجبها.

أما الرأي الثاني فيقول بأن رؤيتهم التمثيلية (أو اليقينية) للنار، رحمة من الله سبحانه وتعالى، لما في ذلك من حيلولة بين المتقي والعُجب، فرؤيته للنار تجعله قائماً على حقيقة ضعفه وتصاغر نفسه، مما يوجب الانكسار.

١- سورة الحجر ٤٧

٢- سورة الواقعة ١٦

٣- سورة الواقعة ٤١

٤- سورة الواقعة ٥١

- أما الثالث فيعلل كون المتقي كمن رأى النار بمعرفته عدم إمكانية الركون إلى العمل الصالح، حيث أنّ الثقة به تستلزم التقليل من حقيقة الرحمة الإلهية والتي بها يفوز العبد بالجنة ويُنقَذ من النار، وطالما أنه قد علم بالنار وبأن استنقاذه منها ومن لهيبها مرهون برحمة الله عز وجل، صار ذلك العلم عاملاً لإبقاءِ نفسه على خط التقوى والحذر من الزلل.

لذلك كان التنعم في الجنة يقابله العذاب في النار، مما يعني الالتزام بنهج التقوى، بالضرورة العقلية.

(صفات المتقين قلباً وقالباً)

قوله عليه السلام:

»قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ«

حزن القلب:

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ اللَّهَ شَيْئًا﴾[1].

يظهر بأن الرسول صلى الله عليه وآله قد دخله الحزن خوفاً على نور الله تبارك ذكره لِما كان من الغلبة الظاهرة للكافرين في أُحُد، ومما لا يخفى أنه صلى الله عليه وآله يعلم يقيناً أن الله جل وعلا متم نوره ولو كره الكافرون، ولكنه في هذا المقام قد اشتاق لمواساة الله سبحانه وتعالى بعد أن كان من المسلمين ما كان من انقلاب على الأعقاب متجاهلين وجود رسول الله بينهم..

لقد كان حزن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في أُحُد لله عز وجل، لا لمغنمٍ فاته أو ماشابه.

ويقول تبارك ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾[2].

الآية الكريمة تظهر لنا رقة قلب الرسول صلى الله عليه وآله الذي يريد الخير لكل إنسان حتى أنه يعيش حزناً لله جل وعلا ورأفة بالعباد عندما يجد المنافقين وهم يسارعون ويتنافسون في الكفر، فما كان من المولى عز وجل إلا أن أنزل هذه الآية المباركة مواساة ومؤانسة له صلى الله عليه وآله.

١ـ سورة آل عمران ١٧٦

٢ـ سورة المائدة ٤١

لقد جاء القرآن الكريم بشواهد كثيرة، وكذلك السنة النبوية الشريفة وكتب التاريخ، تدل على أن الرسول ﷺ وسائر الأنبياء والرسل وأئمة الهدى (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) كانوا يحزنون، ولكن حزنهم هذا ما كان لجزع أو فزع أو دنيا زائلة، وإنما كان كله لله تعالى خوفاً ورجاءً من جهة، وشفقةً على العباد من جهة أخرى، وهذا يعني أنه حزنٌ محمود يؤجرون عليه بإذن الله جل شأنه.

وقد يكون الحزن بسبب الفراق – مثلاً – كما حزن الرسول ﷺ وبكى على موت ابنه، وكذلك يعقوب (على نبينا وآله وعليه أفضل الصلاة والسلام) بكى على فراق يوسف حتى ابيضت عيناه من الحزن، وهذا الحزن لا بأس به حيث أنه من الطبيعة البشرية الدالة على التوازن التكويني الذي لا يؤاخذ عليه الإنسان.

لكننا نلاحظ أنّ هذا النوع من الحزن وقتي؛ لأنه ينتج عن موقف معين هو إلى زوال – غالباً- كما وهناك حزن على ضياع مال أو جاه أو أي أمر دنيوي آخر، وهذا غالباً ما يكون دائماً وليس وقتياً، لأن صاحبه يبقى جارياً خلف الدنيا وما تكتنفه من لذات وشهوات وهو حزن ممقوت لا مبرر له غير تسلط شيطان الشهوة والجهل على هذه النفس الضعيفة.

ولكن المؤمن التقي في طمأنينة وحزن دائمين، أما الطمأنينة فلله وما وعد به المؤمنين من بشائر الخير والنعم في الدنيا وفي دار القرار، وأما حزنهم فهو الذي قد دبّ في صدورهم بعد أن أدركوا الصورة الإجمالية لعظمة الخالق عز وجل، فحصل عندهم اليقين القطعي بأنهم لو قضوا العمر كله في سجدة واحدة للمولى تبارك ذكره لما وفوا أقل القليل من حق شكره سبحانه وتعالى، فاختزنوا الحزن في صدورهم لعلمهم بتقصيرهم الذي لا يزول بأي حال من الأحوال، هذا وناهيك عن عدم استحقاق أحد الجنة لولا رحمة الله تعالى، فأي حزن ذاك الذي لا يستقر في قلوب العارفين؟؟

الشر المأمون:

مما تقدم يتضح لنا أن الشر هو من الأمور الدنيوية التي لا علاقة لها بالسماء مطلقاً، حيث أن الله سبحانه وتعالى لا يصدر عنه إلا الحسن، وبما أن الشر قبيح فهو لا يصدر عنه عز وجل، فما هو مصدر الشر؟

الشر:

هو السوء، ولا يكون إلا باقتران أمرين معا، أولهما ترك الخير، والثاني الإصرار على فعلٍ ما، فترك الخير لا يعني دائماً اللجوء إلى الشر، حيث أنّ عدم الإقدام على فعل لا يكون شراً – غالباً – في حين أن تركه مع الإصرار على فعل يعني أن يكون ذلك الفعل مقابلاً له وهو الشر بالضرورة.

فالصحيح إذاً أن نقول بأن مصدر الخير هو الله سبحانه وتعالى والمظهر له – واقعاً– هو الشر الذي يملئ جزءاً من الفراغ الذي هو من دون الخير.[1]

الأمن من الشر والشر المأمون:

علمنا أن المتقين لا يشغلهم غير رضا الله سبحانه وتعالى، فإذا كان:

منطقهم الصواب، كانت آراؤهم راجحة وفي مرضاة الله تعالى، وإذا كان ملبسهم الاقتصاد كانوا بعاداً عن الطمع والتحاسد مرضاة لله جل وعلا، وإذا كان مشيهم التواضع كانت رؤوسهم مطأطأة لخالقهم مرضاة له سبحانه، وإذا غضوا أبصارهم انتهوا عما حرم الله مرضاة له سبحانه، وإذا وقفوا أسماعهم على العلم المفيد طبقوا ما يرضي الله تعالى، وإذا قنعوا بما أصابوا وأصابهم رضوا بما قسم الله فضاقت دائرة الشر تقرباً للمولى عز وجل.

وهكذا هي أعمالهم قد هجرت الأرض واتصلت بالسماء، فليس هنالك مِن باعث على صدور الشر، ولذلك لا يُتوقعُ منهم إلا الخير والحسن، فمناط القضية ثلاثة أمور هي:

١– تعظيم الخالق والعمل لمرضاته فقط .

٢– تحقير الدنيا والزهد فيها وبها.

٣– إنكار الذات.

فالناتج من هذا الائتلاف الجليل يتمثل في قلة – إن لم يكن انعدام – صدور الشر.

١- في هذا الموضوع بحث غني جداً للشيخ محمد جواد الجزائري (رضوان الله تعالى عليه) - فلسفة الإمام الصادق عليه السلام

نحافة الأجساد:

من المستبعد جداً – إن لم يكن من المنتفي – أن يكون الهزال هو المقصود من نحافة الأجساد، فالرسول صلى الله عليه وآله يقول «المؤمن القوي كالنخلة» كما أن الأحداث والشواهد التاريخية تشير إلى أن المؤمنين في صدر الإسلام كانوا أشداء أقوياء على حمل الحديد، وخير شاهد على ذلك هو أسد الله الغالب وسيفه الطالب علي بن أبي طالب عليه السلام.

إن الذي يُفهم من قوله عليه السلام «وأجسادهم نحيفة» هو أن المتقين لا يُرى في ظاهرهم الجسماني ما يدل على الترف والشره، فهم يأكلون ما قل كمُّه وتعاظمت فائدته، فتجدهم أقوياء البنية دون لحم زائد أو شحم مترهل.

خفة الحاجة:

من الطبيعي جداً أن تكون حوائج المتقين الدنيوية خفيفة، لأنهم لا يبتغون إلا ما يوصلهم إلى الأمان في الآخرة، وخفة الحاجة نتيجة لصفة الاقتصاد التي أشار إليها الأمير عليه السلام مسبقاً، فالإنسان العاقل يدرك أن حاجته في هذه الدنيا تنحصر في أمرين:

١- الحاجة للعوامل التي تقويه على عبادة الله سبحانه وتعالى.

٢- الحاجة لما يكفل له العيش بكرامة.

أما ما نتناوله هنا فهو الأمر الثاني، وذلك بناءً على أن الأول معطوف عليه كلياً، فببيان الثاني يتضح الأول إن شاء الله تعالى.

نحاول الآن حصر احتياجات الإنسان في الدنيا فنقول بأنه يحتاج إلى:

- الطعام:-

يقول الله سبحانه وتعالى:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّبًا وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[١]، ثم قال جل وعلا:﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ

١- سورة البقرة ١٦٨

الْمُسْرِفِينَ ﴾[1]،وقال الإمام الصادق عليه السلام :»لا تسمنوا تسمُّن الخنازير للذبح»[2]، وقال أبوه الإمام الباقر عليه السلام: «إذا شبع البطنُ طغى»[3] .

أحل الله سبحانه وتعالى وطيّب لنا المأكولات، ثم أمرنا بعدم الإسراف في الأكل، أي أن نأكل بمقدار الحاجة فقط، ثم جاء الإمام الصادق عليه السلام ليبين لنا قبح التسمن ويشبهه بحال الخنازير إذا أُريدَ ذبحها!!

أما اليوم فقد توصل الأطباء وعلماء النفس إلى حقيقة أشار إليها أئمة الحق عليهم السلام قبل مئات السنين، وهي حقيقة العلاقة بين البطن والقوة العقلية والإدراكية التي تنخفض في حالتين، هما الجوع الشديد والشبع الزائد، وبما أن العقل قد عرّفه الإمام الصادق عليه السلام بقوله هو «ما عُبِد به الرحمن» صار من المنطق أن نحصر وظيفته في عبادة الله سبحانه وتعالى وما يؤدي إليها، وبناءً عليه يكون الأكل بمقدار الحاجة فقط، وقانون ذلك في التالي:

قال الإمام الصادق عليه السلام : «إن الله عز وجل يبغض كثرة الأكل» ثم قال «ليس لابن آدم بُدٌّ من أكلةٍ يقيم بها صلبه، فإذا أكل أحدكم طعاماً فليجعل ثلث بطنه للطعام، وثلث بطنه للشراب، وثلث بطنه للنفس، ولا تسمنوا تسمن الخنازير للذبح»[4].

- الملبس:-

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير سرف ولا بخل، إن الله يحب أن يرى نعمته على عبده»[5].

وقال تعالى:﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[6]، وفيها قال الإمام الرضا عليه السلام : «هي الثياب «[7].

١- سورة الاعراف ٣١

٢- الكافي ج٦ ص٢٧٠

٣- الكافي ج٦ ص٢٧٠

٤- الكافي ج٦ ص٢٧٠

٥- بحار الأنوار ج٧٠ ص٢٠٧

٦- سورة الأعراف ٣١

٧- تفسير العياشي ج٢ ص١٢

لا يختلف اثنان على أن اللباس من المجملات المهمة للإنسان والواجبة لستر عورته، ألا ترى أن من يلبس لباساً غير لائقاً يستخف به الأسوياء؟

وكذلك من يخرج عارياً يُشار إليه بالبنان ويُقال عنه مجنوناً ؟

إذاً، الإنسان يلبس الثياب ليستر ما أمر الله به أن يُستر، وليتجمل من باب إبداء النعمة التي أنعم الله بها عليه.

وبناءً عليه يكون الإسراف بلبس الغالي والثمين خارج عن حد الحاجة، وبالتالي هو غير مرضي لله سبحانه وتعالى، كما أن لبس ما يدل على الفقر والعوز قد يكون علامة من علامات الجحود.

لذلك كان أهل التقوى يلبسون ما يدل على كفايتهم، فلا يبالغون ولا يقترون، فأمست حاجتهم للباس خفيفة.

- النكاح:-

غريزةٌ قد جعلها الله الحكيم جل شأنه في الإنسان لغرضين أساسيين، الأول هو نيل الاستقرار، وفيه يقول سبحانه:﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1].

وقد عُلِمَ بالبرهان الواقعي أن العلاقة بين الرجل والمرأة تختلف عن العلاقة بين الرجل والرجل وبين المرأة والمرآة من حيث التلاطف والتحنن والانفتاح النفسي، وهذا كله من حكمة الباري تبارك وتعالى، فهو العالم بأن العلاقة بين الرجل والمرأة لو انحصرت في مجال المعاشرة الجنسية فقط لكانت هذه الغريزة الحيوانية غاية، وفي ذلك حط من مكانة الإنسان وكرامته، لذلك كانت الممارسات الزوجية الصحيحة بباعث من المحبة والتواد، وفيهما تمام السكينة والاستقرار.

وقد يقال: إذا كان النكاح وسيلة لا غاية، فلماذا قال الله جل وعلا:﴿فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾؟[2]

١- سورة الروم ٢١

٢- سورة النساء٣

الجواب على هذا الإيراد سهل بسيط يُفهم من فلسفة أصل الزواج المشار إليها أعلاه؛ ولاشك في أن الانتشار الأفقي لها أمر حسن بل مطلوب في بناء المجتمع، وهذا مطلب يؤيده التعقل جداً، ولكن ترفضه العاطفة التي تربت على المسلسلات والأفلام التلفزيونية والسينمائية التي مافتئت تشوه فطرة الإنسان وتمسخ ذائقته الفكرية.

وكيف كان فإن الحديث عن أهل التقوى والزواج، فهم يطلبون الزواج لغرض عبادي سامٍ عنوانه السكينة والمودة والرحمة، وبذلك فهم لا يلتفتون أصلاً إلى مهر عالٍ أو شبكة أو حفلة في صالات تُستأجر بمبالغ طائلة كما هو الحال اليوم، ولذلك كانت حاجتهم خفيفة لا إرهاق فيها ولا ذلة.

- المركوب:-

احتاج الإنسان منذ القدم إلى وسيلة تعينه على الانتقال من مكان إلى آخر، فكانت الخيل والبغال والجمال وأشباهها، ومن ثم السفن لقطع البحار والأنهار، إلى أن جاء دور السيارات والقطارات والطائرات وغيرها من وسائل النقل في الزمن الحديث.

كما أن الإنسان قد احتاج لما يركبه في ساحات القتال، فكانت الخيل هي سيدة الموقف، ولذلك كان البحث دائماً عن الجواد القوي والسريع والرشيق.

تلك كانت ضرورات لا يستغني المرء عنها في الزمن الغابر، أما اليوم فقد حلّت السيارات والطائرات محل الخيل والجمال، وقد تركزت استخداماتها في نقل الإنسان والمتحركات من مكان إلى آخر.

فإذا كان البحث سابقاً عن جواد سريع يوصل الراكب إلى مرماه في أقصر فترة زمنية ممكنة، فإن قوانين الإدارات المرورية اليوم قد وضعت حداً أقصى للسرعة لا يسمح بتجاوزه بأي حال من الأحوال، وهو في الغالب ١٢٠ كيلومتر في الساعة، وهذه السرعة لا تعجز أي سيارة — غالباً — عن الوصول إليها، سواء كانت تلك السيارة بخمسة آلاف درهم أو بخمسمائة ألف درهم، لذلك ليس من الخفة في الحاجة أن نقتني سيارة باهظة الثمن إلا إذا كانت نيتنا التباهي والتفاخر بين الناس!

من هنا نقول بأن المتقين كانوا يركبون أفضل الجياد لتعزيز القوة الجهادية عندهم والمرادة للانتصار لله سبحانه وتعالى، كما أنهم يكتفون بجوادٍ واحد مع الاعتناء به والمحافظة عليه،

فيدوم معهم في العمل في سبيل الباري عز وجل لأطول فترة ممكنة، فكانت حاجتهم للمركوب خفيفة لا مبالغة فيها.

فالمتقي في نهاية المطاف لا يحتاج لسيارة فارهة فضلاً عن سيارات عدة، وهو ليس في حاجة للبس الديباج وما شاكله، كما أنه لا يميل إلى الأكل إلا في حال الشعور بالجوع (وهذا الشعور أصبح مجهولاً اليوم !).

وهكذا تبقى حاجات المتقين خفيفة فيجنبون أنفسهم سؤال يوم عسير، عندما يحاسبهم المولى عز وجل في أموالهم فيمَ أنفقوها.

وقد أبدع أمير المؤمنين عليه الصلاة و السلام عندما وصف ملاذ الدنيا لجابر بن عبد الله رضوان الله تعالى عليه، فقال:

«يا جابر ملاذ الدنيا سبعة: المأكول و المشروب و الملبوس و المنكوح و المركوب و المشموم و المسموع، فألذ المأكولات العسل و هو بصق من ذبابة، و أحلى المشروبات الماء و كفى بإباحته و سباحته على وجه الأرض، و أعلى الملبوسات الديباج و هو من لعاب دودة، و أعلى المنكوحات النساء و هو مبال في مبال و مثال لمثال و إنما يراد أحسن ما في المرأة لأقبح ما فيها، و أعلى المركوبات الخيل وهو قواتل، و أجل المشمومات المسك و هو دم من سرة دابة، و أجل المسموعات الغناء و الترنم و هو إثم، فما هذه صفته لم يتنفس عليه عاقل، قال جابر بن عبد الله: فوالله ما خطرت الدنيا بعدها على قلبي».

عفة النفس:

العفة هي الكف عن الحرام وعن سؤال الناس، وهي النزاهة والصبر عن الشيء، فهي من الصفات الرائعة.

يقول الله سبحانه وتعالى «﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ﴾»[1] .

فالعفيف هو الذي لا يظهر فقره وعوزه لغير الله سبحانه وتعالى، بل إنه يظهر خلاف ذلك للناس.

١- سورة البقرة ٢٧٣

والنكتة هنا أن يكون العفاف لثقة المتعفف بالله عز وجل الذي لا يُذِل عبده المؤمن أبداً، وإنما يضعه موضع ابتلاء من باب الامتحان و اختبار الثبات، وعلى ذلك يكون العفاف نِعمَ التصديق بالله سبحانه، إلا أنه في كثير من الأحيان يكون بدافع حب النفس وتكبرها، فلا يكون عفافاً بقدر ما هو غرور وكبر.

فالمتعفف لله سبحانه وتعالى يرغب في رضاه عز وجل، وفيه يقول الرسول الأعظم ﷺ: « إن الله يحب الحيي الحليم العفيف المتعفف »[1].

فعفاف النفس صفة المتقين التي لا تفارقهم مهما عاكستهم الدنيا وضاقت بهم السبل، فهم قد تعلقوا بالغني القادر، فباتوا لا يرون سواه، ولا يكترثون بمن دونه، لعلمهم بأن الأمر كله بيده سبحانه وتعالى.

١- بحار الأنوار ج٦٨ ص٤٠٥

(الصبرُ على أيامٍ قليلة تتبعها راحةٌ طويلة)

قوله عليه السلام :

«صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً، تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ، أَرَادَتْهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُوهَا، وَأَسَرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا»

الصبر:

يقول الله سبحانه وتعالى:﴿وَ عِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَ إِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً* وَ الَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَ قِياماً* وَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً*إِنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقاماً* وَ الَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ كانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً* وَ الَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ وَ لا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَ لا يَزْنُونَ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً* يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ يَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً*إِلاَّ مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلاً صالِحاً فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً*وَ مَنْ تابَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتاباً*وَ الَّذِين لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَ إِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً*وَ الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَ عُمْياناً*وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَ ذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَ اجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماما*أُوْلئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِما صَبَرُوا وَ يُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَ سَلاماً﴾[1].

وقال جل وعلا:﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[2].

١ـ سورة الفرقان ٦٣ـ٧٥

٢ـ سورة البقرة ١٥٥ـ ١٥٧

يشير المولى تبارك ذكره إلى بعض أنواع الامتحانات والابتلاءات الدنيوية، ويبيّن مفتاح النجاح فيها..

إنه الصبر الذي يأخذ بيد الممتحن إلى بر الأمان.

- يتعرض العبد المؤمن لاتهامات باطلة واستهزاءات كثيرة، وألوان من التحقير والاستخفاف، فيرتمي بحكمته وإيمانه في أحضان الصبر بالإعراض وكظم الغيظ وعدم الدخول في جدال مع أمثال أولئك، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾[1].

- الصبر على العبادات والطاعات، بل حتى على المستحبات المقربة لله تبارك وتعالى، ففي ذلك ابتلاءٌ عظيم، حيث أنّ العابد المطيع والمداوم على المستحبات فضلاً عن الواجبات يكون عُرضةً للاتهام بأنه مصاب بمرض نفسي وعُقَد قد أخرجته عن الحال الطبيعي للناس (على حد زعمهم)، كما أن نذْر النفس لله سبحانه وتعالى بالطاعات والالتزام بالواجبات والمستحبات هو أمر يحتاج إلى عزم وإصرار من العابد السالك للطريق الموصل لله جلّ وعلا، لذلك كان الصبر هو المعول عليه في كل حالات العبادة ومواردها.

- ضرورة الصبر على انتظار قضاء الحوائج من الله سبحانه وتعالى، والصبر على الإلحاح في الدعاء وعدم القنوط، والشاهد في الآية الكريمة لا يخلو من بلاغة تدهش العقول، فقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾[2] يعني أن الداعي يسأل الله أمراً لن يعلم بتحققه إلا بعد مماته، وبالرغم من ذلك يبقى داعياً دون كلل أو ملل، فالصبر هنا من الضرورة بمكان لما من شأنه تنقية القلب وتصفية الروح.

- ثم إننا نلاحظ المطب الذي لا يسلم منه إلا من حباه الله تعالى بحظٍ عظيم، وهو مطب الوقوع في الإفراط أو التفريط، حيث إن الوسطية والاعتدال بحاجة لقوة رأي وثبات نفس، وهذا لا يتأتى إلا بالصبر.

- الصبر على كبح جماح الفكر، والسيطرة عليه كي لا يخرج عن الجادة، وذلك بالحيلولة بين الشيطان ووصوله بوساوسه إلى النفس التي تخيل للعقل بأن من لا يرى ربه فمن

١ـ سورة الفرقان ٦٣

٢ـ سورة الفرقان ٦٥

المفترض أن لا يؤمن به، كما قال أصحاب موسى (على نبينا وآله وعليه الصلاة والسلام): ﴿أَرِنَا اللَّهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾[1].

إن الأمان في مثل هذه الموارد ملزوم الصبر على الحق الذي يدرك واقعيته العقل السليم.

- الصبر عن المعصية التي تنطلق في الغالب من الشهوة الحيوانية التي هي في جموحٍ دائم إذا لم نأدبها بروعة الإيمان والحرية الكامنة في الامتثال المطلق لأوامر الله تعالى والانتهاء عن نواهيه.
- الانعطاف الآن على الصبر الذي يجسده حبس النفس عن الجزع عند المصيبة بباعث من الثقة بالله جل شأنه الذي لا يصدر منه إلا الخير والحسن، فهو العادل الذي لا يجور وهو العدل الذي لا يحيد.

في إشارة سريعة أقول: يتأتى الصبر تلقائياً إذا أحب العبد ما يحبه الله وأبغض ما يبغضه الله سبحانه وتعالى.

النسبة الزمنية بين أيام الله في الدنيا وغيرها من أيامه تعالى:

يقول جل شأنه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[2].

فلو عاش إنسانٌ في هذه الدنيا ألف سنة، فهي عند الله في ذاك العالم العلوي تساوي يوم واحد، وهذه المعادلة إنما لبيان تلاشي الزمن هناك في النشأة الأخرى، ولك أن تتصور حساب السبعين عند الله عز وجل..!!

إننا نعيش دنيا زائلة لا حساب لها عند الله عز وجل، فسجدة واحدة تستغرقها لا تفي مثقال حبة من خردل من حق الله سبحانه على عباده..

١- سورة النساء ١٥٣

٢- سورة الحج ٤٧

فليحكم العقل في المسألة التالية:

للإنسان أن يتمتع في الدنيا من يوم مولده إلى ساعة وفاته، ولتكن تلك الفترة الزمنية مائة عام، فيها يلعب ويلهو ويلبي ما تشتهيه نفسه دون أي حاجز أو قيد، ولكنه بعد ذلك سوف يخلد في نار لا يعلم شدتها إلا الله، وهو قوله تعالى ﴿بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1].

فهل تختار ذلك أم أنك تصبر عن الشهوات وتلزم الطاعات فتكون لك الدنيا كالسجن الذي تصبر عليه صبراً لو امتد لمئة سنة فهو لاشيء بحسابات الحقيقة، ولكنه يورث خلوداً في جنة فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت؟

إنه قوله عليه السلام: «صبروا أياماً قصيرة (مقارنة بما هو قادم) أعقبتهم راحة طويلة».

الحاجة إلى توفيق الله وتيسيره:

إن الله سبحانه وتعالى يريد اليسر بعباده دائماً ولا يريد بهم عسراً، ولكنه سبحانه وتعالى ييسر أمر من وجد في نفسه عزماً على انتهاج النهج القويم بالصبر والمثابرة، وهذا ما يتوفر عليه الصابرون الذين لا يغفلون عن مراقبة الله جل شأنه بالذكر والاستذكار، فهم قد عقدوا العزم على الدخول في تجارة ثمنها الصبر ومربحها الجنة، وفي ذلك مرضاة لله تعالى دون أدنى شك، ولذلك كان الله سبحانه إلى جانبهم، ينير قلوبهم ويشد من أزرهم ليجنوا كامل الثمار اليانعات بتيسيره عزّ وجل.

الدنيا وأمانيها:

من الطبيعي جداً على من وضع قدماً على العتبة الأولى من عتبات التقوى فتوفرت لديه الصفات التي مرت فيما مر من الموعظة أن يُقبِلَ على الدنيا ليتزود منها لآخرته، ويعرض عن كل ما تكتنفه من شهوات وأماني ومصائد مؤداها إلى عذابٍ أليم، وخصوصاً إذا كان المتقي قد تدبر وصية أمير المؤمنين عليه السلام والتي يقول فيها:

١ـ سورة البقرة ٨١

« أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَأُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا دَارُ شُخُوصٍ وَمَحَلَّةُ تَنْغِيصٍ، سَاكِنُهَا ظَاعِنٌ وَ قَاطِنُهَا بَائِنٌ، تَمِيدُ بِأَهْلِهَا مَيَدَانَ السَّفِينَةِ تَقْصِفُهَا الْعَوَاصِفُ فِي لُجَجِ الْبِحَارِ، فَمِنْهُمُ الْغَرِقُ الْوَبِقُ، وَمِنْهُمُ النَّاجِي عَلَى بُطُونِ الْأَمْوَاجِ تَحْفِزُهُ الرِّيَاحُ بِأَذْيَالِهَا، وَتَحْمِلُهُ عَلَى أَهْوَالِهَا، فَمَا غَرِقَ مِنْهَا فَلَيْسَ بِمُسْتَدْرَكٍ، وَمَا نَجَا مِنْهَا فَإِلَى مَهْلَكٍ.

عِبَادَ اللَّهِ، الْآنَ فَاعْلَمُوا وَالْأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ وَالْأَبْدَانُ صَحِيحَةٌ وَالْأَعْضَاءُ لَدْنَةٌ وَالْمُنْقَلَبُ فَسِيحٌ وَالْمَجَالُ عَرِيضٌ، قَبْلَ إِرْهَاقِ الْفَوْتِ وَ حُلُولِ الْمَوْتِ، فَحَقِّقُوا عَلَيْكُمْ نُزُولَهُ وَلَا تَنْتَظِرُوا قُدُومَهُ»[1].

ثم إنهم بعد أن وقفوا على حقيقة الدنيا وأنهم فيها كالأسرى، كانت فدية العتق منها مخالفة النفس والهوى، وفي ذلك تمام الحرية وكمال الأريحية.

١- بحار الأنوار ج٧٠ ص١٣٣

(الأتقياء في عروجٍ متسقٍ لله ليلاً ونهاراً)

قوله عليه السلام :

« أَمَّا اللَّيْلَ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلًا، يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَ يَسْتَثِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ، فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً وَ تَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقاً وَ ظَنُّوا أَنَّهَا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ، وَ إِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ وَ ظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَ شَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ، فَهُمْ حَانُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ، مُفْتَرِشُونَ لِجِبَاهِهِمْ وَ أَكُفِّهِمْ وَ رُكَبِهِمْ وَ أَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ، يَطْلُبُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ . وَ أَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ، قَدْ بَرَاهُمُ الْخَوْفُ بَرْيَ الْقِدَاحِ، يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى وَ مَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ وَ يَقُولُ لَقَدْ خُولِطُوا».

البرنامج الليلي للمتقين:

للّيل خصوصية لا يدركها إلا من استشعر حنانه وضياء ظلامه الذي ما إن يستنير به العابد حتى يشع في جوف ذلك الليل نورٌ يشق عنان السماء .....

الليل ... والناس نيّام، والدنيا قد أسدلت ستارها على نهار مضى لينتشر السكون في كل مكان...

وفي ذلك السواد المعتم «تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا »[1].

ها هم عشّاق الليل قد نهضوا من مراقدهم لـ «﴿يتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾»[2]

١- سورة السجدة ١٦

٢- سورة آل عمران ١١٣

فما الذي حداهم إلى ذلك و قضّ مضاجعهم وجعلهم يصفّون أقدامهم في جوف الليل؟

لقد أوصى الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله بالليل، فقال:﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾[1].

وقال جل وعلا ناعتاً أهل الليل:﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[2] .

بل وأكثر من ذلك أن جعل قيام الليل مادة تأهيل لتلقي فيوضات السماء، فقال لرسوله الأمجد صلى الله عليه وآله ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلا * نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلا ﴾[3] .

وقال سبحانه ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءًا وَأَقْوَمُ قِيلا ﴾[4] .

هكذا كانت للعبادة في جوف الليل فاعلية خاصة، وقد أكّد الله جل شأنه على الأثر العجيب والمذهل لقيام الليل عندما قال:﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلا ثَقِيلا ﴾[5] .

فقد جعل سبحانه قيام الليل مقدمة استعدادية لتلقي الوحي وثقله، فهل يستخّف المتقون به بعد أن علموا فضله وآثاره في جذب العابد نحو الله تعالى بدليل قوله:﴿عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[6] ؟

التلاوة والترتيل:

عندما تُعّرف التلاوة بتعاقب الكلمات فإن الترتيل يختص بتفصيلها التفصيل الذي يؤهل القارئ للتدبر والتمعن، وهما من وظائف العقل الذي ما إن يستشعر عظم آيات القرآن الكريم حتى يرسل إشارات الخشوع والخضوع لكل ذرة في الجسم فتراه يسجد مرتعداً من خشية الله وعظمته سبحانه وتعالى، وذلك في قوله عز وجل:﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ (سجدة)»[7] .

١- سورة الاسراء ٧٩

٢- سورة الزمر ٩

٣- سورة المزمل ٢-٤

٤- سورة المزمل ٦

٥- سورة المزمل ٥

٦- سورة الإسراء ٧٩

٧- سورة مريم ٥٨

إنّ تلاوة القرآن تلاوة مرتلة تجلب فوائد كثيرة جداً، منها إضفاء صبغة الحزن على النفس، وما أَجَلَّهُ من حزن إذا كان ندماً وأسفاً على كل لحظة مضت و لم تكن معمورة بذكر الله سبحانه وتعالى وشكره وحمده، ثم إن في هذا الحزن حملة على قسوة القلب، وهو الداء الذي لو داويناه لسلمنا من بلايا الدنيا وحزوناتها، وأي دواء أنفع وأعز وأشرف من آيات الله سبحانه وتعالى التي دأب العلماء ومازالوا منذ ألف وأربعمائة سنة على استكشاف خباياها ومكنوناتها، فهنيئاً للمتقين الذين اتخذوا القرآن الكريم سراجاً ينير قلوبهم قبل الدروب ويحييهم قبل الغروب...

إننا لو أدركنا مافي الكتاب العزيز من منجيات لرجعنا خير أمة أخرجت للناس، ويكفينا هنا قول الإمام السجاد عليه السلام: (إن الله يقول في كتابه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ وقد ورثنا نحن هذا القرآن الذي فيه ما تُسَيَّر به الجبال وتقطع به البلدان وتُحيى به الموتى)[1].

فمتى نعود لكنزنا المهجور؟

مراحل التدبر القرآني:

لا يتعدى المتقون لفظاً من ألفاظ القرآن الكريم إلا من بعد أن يتدبروا ويتمعنوا في معانيه، لذلك فإنهم وفي طريق تلاوتهم وترتيلهم إذا مروا بآية أو آيات تصور لهم الجنة ونعيمها، تراهم يعيدون قراءتها ثانية، ثم يعيدون الكرّة ثالثة ورابعة، فيغمضون أعينهم ويسافرون بأرواحهم إلى صورة على قدر تصورهم الناقص للجنة التي قد المعت إلى كيفها تلك الآيات التي ركنوا إليها.

أما إذا كانت الآيات منذرة ومخوّفة من نار وقودها الناس والحجارة، فإن عقل المتقي يمررها إلى قلبه مباشرة فيعي حجم الخطر وعظم المحذور، فيبقى في شفقة لا تهدأ حتى يعض بالنواجذ على خط التقوى المنجي من كل هلكة بإذن الله سبحانه وتعالى.

١ـ الكافي ج١ ص٢٢٧

تحليق الساجد في سجوده:

تبقى أمور لا نتمكن من توضيحها، وإن تمكنا فإنه من الصعب على المتلقي أن يستشعر المعنى، حيث أنّ مدارها الذات فقط، ومن ضمن هذه الأمور، السجود...

نعم، السجود الذي طالما حاولنا أن نقتبس من معانيه الروحية ممن يخرجون من سجن الدنيا في حال سجودهم، ولكننا نفشل مرة تلو الأخرى في استيعاب حقيقة الأمر، وهذا لا يعني عدم إدراكنا لشيءٍ مما قالوا، فالأذن تسمع، والعقل – بإذن الله – يعي، ولا يبقى إلا الإحساس الذي يحتاج إلى مقدمات نسأل الله اللطيف أن يوفقنا إليها.

ولكننا في معرض السؤال عن الحقيقة الروحية للسجود، استوقفتنا لطيفة من لطائف الإسلام، وهي أن السجود لله سبحانه وتعالى يمثل جانباً عجيباً من مبدأ الأخذ والعطاء، فمن المعروف أن السجود يدل على السكون والفتور الظاهري، لذلك سمي إغماض الأجفان بالإسجاد، فهو في واقع الأمر تذلل وخشوع وخضوع لله سبحانه وتعالى، وعند وصول الساجد لهذه المرحلة المستشعرة وهو في حال السجود، تولد اللحظة الفاصلة والمازجة في نفس الوقت بين الأخذ والعطاء، فينقطع الساجد عن هذه الدنيا ويحلّق بشكل لا يوصَف في سماء لا توصف، لأنه بسجوده واستشعاره للتذلل والتصاغر أمام العظمة الإلهية يكون قد قطع شوطاً أساسياً في طريق الاقتراب والدنو من الله تبارك وتعالى .

وأي هدف أسمى، وأي مبتغى أجلُّ من الاقتراب من الله سبحانه؟

من هذا المنطلق الطامح والطامع في الوصول إلى الدرجات العلى،كان أهل التقوى وكأنهم قد أوقفوا مواضع السجود في أبدانهم على الشهادة لهم بطول السجود في الأسحار وظلمات الليل، يوم لا ينفع مال ولا بنون.

اللهم اجعلنا منهم يا قدير يا عزيز.

التردد في الطلب بين الطمع والنفور:

من باب أن فرض المحال ليس بمحال، نفترض أن الإنسان يعتمد كلياً على أعماله الحسنة في الفوز بالجنة، فيأتي يوم القيامة واثقاً لا يداخله شك في أنه من المرضي عنهم، فالأمر في هذه الحال حسن ؛ لأنه قد فلت من المعاصي في الدنيا ووصل إلى بر الأمان بصحيفة يفترض أنها بيضاء.

ولكن ما الذي يضمن وصولنا بأمان ونحن لا نزال نعيش في الدنيا، والله سبحانه وتعالى يقول ﴿وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾[1] .

والتركيز هنا على لفظ (لا تشعرون) الذي يعني احتمالية خلو ساحة العبد من الأعمال الصالحة بعد أن كانت مليئة بها دون أن يشعر، وهي الطامة الكبرى والخسران العظيم.

فهل من الممكن أن نثق بأعمالنا بعد أن نقل لنا المولى عز وجل قول إبليس ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[2].

لذلك كان من الواجب على العبد أن يكون بين أمرين في دعائه وتضرعه، بين طلب النجاة مما يوجب النار والفوز بما يوجب الرضوان، وإنما كانت الإشارة من أمير المؤمنين عليه السلام إلى الجانب الأول فقط وهو قوله (يطلبون إلى الله تعالى في فكاك رقابهم) دليل على أنّ المتقين لا يثقون بأعمالهم ولا يعوّلون عليها بالقدر العكسي لثقتهم بالله ورحمته، بل أن ثقتهم بالله سبحانه وتعالى قد عانقت السماء فكان تركيزهم على طلب الفكاك من العذاب.

البرنامج النهاري للمتقين:

بعد أن يمضي المتقون قسطاً من الليل في قيامٍ خاشع وركوع خاضع وسجودٍ جميل، يندلع لسان الصباح لتبزغ شمس يوم جديد قد تذهب بعبادة ليلتهم أدراج الرياح.. !

كيف لا وفي النهار تفتح الأسواق فينشط الشيطان...؟

كيف لا وفي النهار يستأنف الاجتماع فتخصب ساحة الآثام والزلاّت...؟

١- سورة الحجرات ٢

٢- سورة الأعراف١٦-١٧

إنّ النهار وما يشغله من نشاطات في التجارة والمعاملات والملاسنة، لا يخلو من خطورة يهابها المتقون، لذلك كان من الحري بهم أن يبحثوا عما يعينهم على صدِّ كل سهم ماكر يرمي به الشيطان في طريق العباد بغية الإطاحة بهم، ولذلك كان منهم اللجوء إلى الواحد القهار عزّ وجل، فوجدوه ينعت ويمدح الخليل إبراهيم عليه السلام بقوله ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾[1]،

فوقفوا عند صفة الحلم و التي من خصائصها إبعاد المتحلي بها عن أشواك الغضب ومغبات التسرع والعصبية؛ فالحليم لا يستخفه مستخف ولا يستفزه مستفز، وفي ذلك أمن وأمان، وحسبك قول أمير المؤمنين عليه السلام: «يا طالب العلم إن للعالِم ثلاث علامات، العلم والحلم والصمت، وللمتكلف ثلاث علامات، ينازع من فوقه بالمعصية، ويظلم من دونه بالغلبة، ويظاهر الظَلَمة «[2] .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «نعم وزير الإيمان العلم، ونعم وزير العلم الحلم، ونعم وزير الحلم الرفق، ونعم وزير الرفق الصبر»[3]، وقال الإمام الصادق عليه السلام: « إن الله عز وجل وضع الإيمان على سبعة أسهم، على البر والصدق واليقين والرضا والوفاء والعلم والحلم «[4].

ناهيك عن كون الحلم من صفات الله سبحانه وتعالى، ولا أفضل من التخلق بأخلاقه جل شأنه، لذلك اشتغل المتقون بتأصيل وترسيخ صفة الحلم في ذواتهم كي يبعدوا أنفسهم عن مضامير العصبيات والغضب لغير الله جل وعلا.

ثم إنهم بعد أن كانوا حلماء، أدركوا أنّ الحلم لا يبعث على تمام الطمأنينة إذا لم يقترن بعلم يبرره، فأمعنوا النظر بكتاب الله الحكيم، ليجدوه قد أفاض بالآيات المادحة للعلم والتعلم والعلماء، ففي التعلم قال سبحانه ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾[5]،

وقال تعالى ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ «[6]، وقال تبارك ذكره ﴿عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[7] .

وفي مدحه للعلماء قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ

١- سورة التوبة ١١٤
٢- الكافي ج١ ص٣٧
٣- الكافي ج١ ص٤٨
٤- الكافي ج٢ ص٤٢
٥- سورة البقرة ٣١
٦- سورة الرحمن ٢
٧- سورة العلق ٥

سُجَّدًا» و في آية أخرى يقول: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾ .

كما نجده جل شأنه في مقابل مدحه للعلم يذم الجهل والجهلاء ومن يتحدثون بما لا يعلمون، فقال سبحانه ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ ﴾[١]، ويقول تعالى ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[٢] .

وبعد ذلك جاء جلت قدرته ليحصر الفهم العميق لقصص القرآن الكريم وأمثاله بالعلماء فقال ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾[٣] .

إنّ فضل العلم والتعلم واضح جلي في كتاب المولى تبارك ذكره، مما حث المتقين على التردي برداء العلم، و الذي باقترانه بالحلم يبعدهم أكثر عن مهالك الشيطان الذي ينصب شباكه تحت ضوء الشمس في كل يوم جديد.

من الملاحظ الآن أن محل العلم والحلم هو النفس التي تعكسهما على أسلوب التعامل مع الآخرين.

ولإكمال الخط الرادع للشيطان وحبائله، تيقن المتقون من ضرورة البحث عن أدوات التعامل مع العباد والتي من شأنها أن تطفئ أي نار قد توقدها أو أوقدتها شرارات الحسد والبغض، فكانت صفة البر تتقدم كوكبة الأخلاق الحميدة التي تؤلف بين القلوب وتجمع بين النفوس، فالبر هو الإحسان، والأبرار هم المحسنون الذين قال فيهم الإمام الصادق عليه السلام : «فاز والله الأبرار وخسر الأشرار، أتدري من الأبرار؟ هم الذين خافوه واتقوه وقربوا إليه بالأعمال الصالحة وخشوه في سرهم وعلانيتهم»[٤] .

وقد وعدهم الله جل وعلا قائلاً ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾[٥]، وقال سبحانه ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾[٦] .

١- سورة النساء ١٥٧

٢- سورة الأنعام ١١٩

٣- سورة العنكبوت ٤٣

٤- مستدرك الوسائل ج١١ ص٢٣٣

٥- سورة الإنفطار ١٣

٦- سورة المطففين ١٨

لذلك هم لا يتوانون عن فعل الخير والإحسان بالقول والفعل، فتجدهم يحسنون لمن أساء إليهم فضلاً عمّن لم يسئ، كما أنهم يسعون دائماً في إصلاح ذات البين وتصفية الأجواء الاجتماعية من المشاحنات والخصومات دون أن يقحموا أنفسهم في أمور قد تنقلب عليهم فينالوا ما لا يرضيهم، لذلك التزموا التقوى، فكانت أعمالهم كلها خالصة لوجه الله سبحانه وتعالى الذي ما إن وجد في قلوبهم العزم حتى وقف إلى جانبهم، يؤيدهم بنصره ويثبتهم على طريق الحق والصواب.

أثر الخوف والخشية من الله جل شانه:

يقول الله سبحانه وتعالى ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَ يَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ * وَ الَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِيَةً وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَ أَزْواجِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَ الْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ * سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[١].

إذاً، الجنة هي ثواب أولئك الذين يخافون الله سبحانه وتعالى ويخشونه في سرهم وعلانيتهم، ولكن هذا الخوف الذي يُدخلهم الجنة يظهر في الدنيا على وجوههم وأجسادهم، فترى ألوانهم قد خُطِفت خطفاً، فيحسبهم الناظر مرضى من شدة الخوف البادي عليهم، في حين أنهم أصحاء لا مرض فيهم، لذلك من يجهل حالهم يقول بأن عقولهم قد فسدت واختلت لمخالفتهم الكثير من سنن الحياة[٢]، بيد أن المتقين يرون خلاف ذلك فيُرمون بالجنون وما شابه، ولكنهم يحتسبون أمرهم عند الله سبحانه وتعالى برجاء الفوز بعقبى الدار.

١- سورة الرعد ٢١- ٢٤

٢- سنن موضوعة وخاطئة يعتقد كثيرون أنها صحيحة ،بل ويدافعون عن باطلها بعد أن انقلب في عيونهم حقاً .

(استصغار الأعمال الحسنة لتجنب العُجب)

قوله عليه السلام:

«وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ، لَا يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ، وَلَا يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيرَ، فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ. إِذَا زُكِّيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ، فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي وَرَبِّي أَعْلَمُ بِي مِنِّي بِنَفْسِي، اللَّهُمَّ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ وَاجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ وَاغْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ»

يرد الإمام عليه السلام على الجاهلين الذين يظنون بالمتقين سوءً عندما قالوا: «قد خلطوا» ويقصدون بأنهم قد جُنّوا، وذلك بقوله عليه السلام: «ولقد خالطهم أمر عظيم»، وهو يريد بذلك:

(صدقتم بقولكم «قد خلطوا»، ولكن اعلموا بأنه ليس لجُنةٍ أو جنون، وإنما هو لخوفهم العظيم من الله سبحانه وتعالى)..

إنّ المتقين عندما أدركوا بعضاً من مظاهر عظمة الله سبحانه وتعالى، تيقنوا من أنهم لو قضوا جل أعمارهم في فعل الخيرات والعبادات وشكر قاضي الحاجات لما وفوا عشر معشار حقه سبحانه وتعالى، لذلك فإنهم يجدون كل ما يفعلونه قليلاً لا سبيل لأن يكون كثيراً، فهم في اتهامٍ دائمٍ لأنفسهم، وعنوان التهمة هو: التقصير في جنب الله سبحانه وتعالى، وفي هذا الاتهام منهم لأنفسهم هروب من هلكة العُجْب الذي يقول فيه الإمام الصادق عليه السلام: «إن الله علم أن الذنب خير للمؤمن من العُجب ولولا ذلك ما ابتلي مؤمن بذنب أبداً»[١]، وقال عليه السلام «من دخله العجب هلك»[٢].

١ـ الكافي ج٢ ص٣١٣

٢ـ الكافي ج٢ ص٣١٣

وقال عليه السلام: «قال إبليس إذا استمكنت من ابن آدم في ثلاث لم أبالِ ما عمل فإنه غير مقبول منه، إذا استكثر عمله، ونسي ذنبه، ودخله العجب»[1].

فالعُجب إذاً آفة إذا أصابت المؤمن قلبت إيمانه إلى هشيم لا يصمد أمام الرياح البعيدة، فضلاً عن إذا ما عصفت به عن قريب فلا تبقي منه شيئاً مجتمعاً، وإن مدح الآخرين للمؤمن العابد قد يكون من الممهدات الرئيسية لدخول العجب في قلبه، لذلك ترى المتقين يخافون إذا زكوا أو مُدِحوا، فيقول الواحد منهم: «أنا أعلم بنفسي من غيري، وربي أعلم بي مني بنفسي». ومن هذا الرد الرائع تكون الانطلاقة نحو السمو في عالم التقوى والتي من أول شروطها إنكار الذات واستقلال العمل كماً وكيفاً في جميع الأحوال.

دعاء النجاة:

إذا غُفِرَ للإنسان ذنبُه وسلم من لوم الواحد القهار، فإنه وبرحمته سبحانه وتعالى يكون من المرضي عنهم، لذلك كان مما اشتغل به المتقون العمل الجاد للمحافظة على بياض صفحتهم وتنقيتها من كل شائبة صادرة كانت أو واردة، ومن باب ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء الاستسقاء: «اللهم منك ارتجاؤنا، وإليك مآبنا، فلا تحبسه عنا لتبطنك سرائرنا، ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا»[2] .

كان خوف المتقين من أن تفتر نفوسهم لذلك المدح والإطراء، فما كان منهم إلا أن أبدوا براءتهم وشعورهم بعدم استحقاقهم للثناء، فسألوا الله سبحانه وتعالى ألا يؤاخذهم بما يُقال فيهم، ولم يفتهم أن يطلبوا من الله جلا وعلا أن يجعلهم عنده أفضل مما يظن المادحون وأن يغفر لهم ما لا يعلمون.

١ـ وسائل الشيعة ج١ ص٩٨

٢ـ من لا يحضره الفقيه ج١ ص٥٢٧

(إثنتا عشر علامة تحدد هوية المتقين)

قوله عليه السلام :

« فَمِنْ عَلَامَةِ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِينٍ، وَحَزْماً فِي لِينٍ، وَإِيمَانا فِي يَقِينٍ، وَحِرْصاً فِي عِلْمٍ، وَعِلْماً فِي حِلْمٍ، وَقَصْداً فِي غِنًى، وَخُشُوعاً فِي عِبَادَةٍ، وَتَجَمُّلًا فِي فَاقَةٍ، وَصَبْراً فِي شِدَّةٍ، وَطَلَباً فِي حَلَالٍ، وَنَشَاطاً فِي هُدًى، وَتَحَرُّجاً عَنْ طَمَعٍ»

بينّ أمير المؤمنين عليه السلام فيما مر من كلامه الشريف صفات وعلامات المتقين دون فصل بين العلامة والصفة، أما في هذا المقطع من الخطبة فإنه عليه السلام يحدد ما هو بصدده بأنه من العلامات، والعلامة في الحي هي السمة، والسمة تمثل الفاصل في تحديد الهوية، فالسمة من الوسم، والوسم هو أثر الكي الذي يبقى معرفاً للموسوم..

إذاً، العلامة بهذا المعنى تكون بوجه من الوجوه كالسجية وهي الطبيعة، ولكنها ليست من الطبائع التي جبل عليها الإنسان، وإنما هي طبيعة يتطبّع بها المتقون من خلال ممارسات يُمهّد لها، وسنذكرها هنا بشيءٍ من التفصيل .

بعد هذا البيان البلاغي من أمير المؤمنين عليه السلام، يبدأ بسرد العلامات فيبتدر قائلاً «فمن علامات أحدهم أنك ترى له قوة في دين ..... «

١. القوة في الدين:

هي تلك القوة التي تمنع الشك و الأوهام من التطرق إلى القلب، كما أنها تحول دون دخول الوساوس والخطرات إلى الأعمال، وبذلك يكون الثبات في الموقف وعدم الوهن والتزلزل أمام الشدائد والمخاوف، فمن اتصف بهذه القوة في الدين يكون ممن قال فيهم المولى عز وجل ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾[1].

أما بالنسبة لمصدر تلك القوة فإننا نقف أمام ثلاث إفتراضات، هي:

❊ مصدر القوة هو القيادة الإسلامية الحقّة:

لا نجد في هذه الفرضية أفضل وأكمل من حكومة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله والتي أعادها الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، ولكننا لا نرى لتلك الحكومة وجوداً اليوم، وبرحيل القائد لعبت الأهواء لعبتها وفي ذلك يقول تعالى:﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾[2].

فالحكومة والقيادة من طبيعتها أن ترحل لتأتي غيرها بخصوصيات مختلفة ومنهجيات متباينة، من هنا كان اعتماد الفرد على جهة قوة خارجية محكوم عليه بالقهر المرحلي والزمني — وغالباً — المكاني، فيتضح لنا افتقار هذا المصدر إلى الحكمة والعقلانية.

❊ مصدر القوة هو الذات:

الذات محفوظة في ذاتياتها، ولكنها مغلوبة ظهوراً بكم هائل من العوارض المتسلطة عليها، فذات الإنسان الطيبة التي خلقها الله تعالى مفطورة على الخير والعطاء، تُدفَن بما يجره عليها إنسانها من شهوات ونزوات، فالذات تحتاج إلى استنهاض حتى تكون سبباً في نهوض توابعها.

١ـ سورة المائدة ٥٤

٢ـ سورة آل عمران ١٤٤

* مصدر القوة من القوي:

يقول الله سبحانه ﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾[1]،ويقول تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[2] .

وقال جلت قدرته ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[3].

من الواضح الذي لا خلاف فيه هو لامحدودية قوة الله سبحانه وتعالى، فهو القوي ذو القوة المطلقة، وهو المصدر الأساسي لكل ما يندرج تحت قائمة القوة من قوى، فمن لاذ بقوة الله عز وجل يأمن من كل خوف وكل ما يستدعي الخوف دون استثناء، فقد جاء «من كان الله معه لم يقدر الناس له على ضر»[4].

وحتى لو أصاب الإنسانَ ضرٌ، فإذا كان هو في جنب الله سبحانه وتعالى ولوجهه الكريم، صار ضراً يعمل على صقل الجانب الإيماني والتثبيتي لذاك الإنسان.

إن القوة في الدين لا تتأتى إلا إذا كانت نية العبد خالصة لله جلّ وعلا، والشعار في هذا المضمار هو قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[5] .

٢. حزمٌ في لين:

يقول الله تبارك وتعالى ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[6].

الحزم هو ضبط الأمر والأخذ فيه بالثقة، وهو من علامات القوة والرسوخ، غير أنه من الممكن أن يكون مشكلاً إذا كان في وسط آراء مخالفة، حيث أنّ الحازم في أمره قد تغلب عليه

١- سورة الكهف ٣٩

٢- سورة الأنفال ٥٢

٣- سورة المجادلة ٢١

٤- بحار الأنوار – الصحيفة العاشرة الجزء ٩٢ ص٤٦٢

٥- سورة محمد ٧

٦- سورة آل عمران ١٥٩

العصبية والعناد، فيتحول الحزم في هذه الحالة من ميزة حسنة إلى علةٍ للتنفير والتقزز، لذلك كان جمال الحزم وروعته في اقترانه باللين وحسن المعاملة.

أما الحزم المتعصب والمتفرد دون النظر لآراء الآخرين فهو أقرب ما يكون للدكتاتورية التي يمقتها العقل السليم، ويقر مقتها الدين الإسلامي العظيم.

الحزم في اللين طريق للنجاح:

إنّ قضية الرسالة السماوية على صاحبها وآله أفضل الصلاة والسلام تقف أمام أحد احتمالين، فإمّا النجاح والاستمرار، وإلا فالفشل والاندثار، ومع القطع على أنها دعوة حق إلا أن المولى تبارك وتعالى قد بيّن لنا نتيجة حتمية لحالٍ مفترَض، وذلك في قوله عز وجل ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾[1] فجعل الاجتماع الإسلامي مرهوناً بلين الرسول صلى الله عليه وآله في تعامله مع الأطراف والجهات المقابلة، وهذا اللين منه صلى الله عليه وآله كان أساساً متيناً قامت عليه الدعوة بحزم وثبات لا ينكرهما الجاحد فضلاً عن المؤمن المصدِّق.

فالحزم مع اللين هو الأسلوب الأمثل للتعامل بين أفراد المجتمع، لا سيما بين القيادة وعامة الشعب.

٣. إيمانٌ في يقين:

بالرجوع إلى أن الأشياء تُعرف بأضدادها، نبينّ المطلب هنا من خلال التعرف على الكفر، فنقول بأن الكفر على أربعة أصناف:

١- كفر الجحود مع معرفة القلب: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ﴾[2].

٢- كفر المعاندة، وهو أن يعرف بقلبه، ويأبى بلسانه: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾[3].

١- سورة آل عمران ١٥٩

٢- سورة النمل ١٤

٣- - سورة الفتح ١١

٣- كفر النفاق، وهو أن يؤمن بلسانه والقلب كافر: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾[1].

٤- كفر الإنكار، وهو كفر القلب واللسان معا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[2].

يتضح بذلك أنّ الإيمان هو التصديق والإقرار بالقلب واللسان والفعل معاً دون تعارض، وهذا من مراتب الإيمان التي من أشرفها أن يكون على يقين، ولإيضاح المعنى وتقريبه إلى القلوب نورد حديث الإمام الباقر عليه السلام حيث قال:

"سُئِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام عَنِ الإِيمَانِ فَقَالَ:

إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ الإِيْمَانَ عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِمَ: عَلَى الصَّبْرِ، وَالْيَقِينِ، وَالْعَدْلِ، وَالجِهَادِ.

فَالصَّبْرُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى الشَّوْقِ، وَالإِشْفَاقِ، وَالزُّهْدِ، وَالتَّرَقُّبِ.

فَمَنِ اشْتَاقَ إِلَى الجَنَّةِ سَلاَ عَنِ الشَّهَوَاتِ، وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النَّارِ رَجَعَ عَنِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَمَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا هَانَتْ عَلَيْهِ الْمُصِيبَاتُ، وَمَنْ رَاقَبَ الْمَوْتَ سَارَعَ إِلَى الخَيْرَاتِ.

وَالْيَقِينُ عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: تَبْصِرَةِ الْفِطْنَةِ، وَتَأَوُّلِ الحِكْمَةِ، وَمَعْرِفَةِ الْعِبْرَةِ، وَسُنَّةِ الأَوَّلِينَ.

فَمَنْ أَبْصَرَ الْفِطْنَةَ عَرَفَ الحِكْمَةَ، وَمَنْ تَأَوَّلَ الحِكْمَةَ عَرَفَ الْعِبْرَةَ، وَمَنْ عَرَفَ الْعِبْرَةَ عَرَفَ السُّنَّةَ، وَمَنْ عَرَفَ السُّنَّةَ فَكَأَنَّمَا كَانَ مَعَ الأَوَّلِينَ وَاهْتَدَى إِلَى الَّتِي هِيَ أَقْوَمُ، وَنَظَرَ إِلَى مَنْ نَجَا بِمَا نَجَا، وَمَنْ هَلَكَ بِمَا هَلَكَ، وَإِنَّمَا أَهْلَكَ اللَّهُ مَنْ أَهْلَكَ بِمَعْصِيَتِهِ، وَأَنْجَى مَنْ أَنْجَى بِطَاعَتِهِ.

وَالْعَدْلُ عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: غَامِضِ الْفَهْمِ، وَغَمْرِ الْعِلْمِ، وَزَهْرَةِ الحُكْمِ، وَرَوْضَةِ الحِلْمِ.

فَمَنْ فَهِمَ فَسَّرَ جَمِيعَ الْعِلْمِ، وَمَنْ عَلِمَ عَرَفَ شَرَائِعَ الحُكْمِ، وَمَنْ حَلُمَ لَمْ يُفَرِّطْ فِي أَمْرِهِ وَعَاشَ فِي النَّاسِ حَمِيداً.

وَالجِهَادُ عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالصِّدْقِ فِي الْمَوَاطِنِ، وَشَنَآنِ الْفَاسِقِينَ.

١- - سورة المنافقون ١

٢- - سورة البقرة ٦

فَمَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ شَدَّ ظَهْرَ الْمُؤْمِنِ، وَمَنْ نَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ أَرْغَمَ أَنْفَ الْمُنَافِقِ وَأَمِنَ كَيْدَهُ، وَمَنْ صَدَقَ فِي الْمَوَاطِنِ قَضَى الَّذِي عَلَيْهِ، وَمَنْ شَنِئَ الْفَاسِقِينَ غَضِبَ لِلَّهِ، وَمَنْ غَضِبَ لِلَّهِ غَضِبَ اللَّهُ لَهُ. فَذَلِكَ الْإِيمَانُ وَدَعَائِمُهُ وَشُعَبُهُ "[1]

أما اليقين فهو زوال الشك كلياً حتى يتيقن العبد بأن الله سبحانه وتعالى له الأسماء الحسنى، وأن صفاته هي عين ذاته، فلا يكون شيء إلا بأمره جل وعلا، وهذا تمام الاطمئنان، لذا كانت مرتبة الإيمان المنصهر في اليقين من المراتب الشريفة التي يسعى للوصول إليها كل عبد عاقل يبتغي رضا الله سبحانه وتعالى، وقد مدح الله تعالى اليقين والموقنين في غير مكان، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[3]،

وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾[4]، وقال عزّ وجل: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾[5]، وقال جل وعلا: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[6].

نسأل الله العزيز القدير أن يجعلنا من الموقنين.

٤. حرصٌ في علم:

يقول علماء الأخلاق بأن الحسن يمثل الخط الفاصل بين الإفراط والتفريط، أما الوقوع في أحدهما فهو قبيح عند العقلاء، لذلك كان البحث دائماً عن الأدوات والملكات التي تقوِّم الإنسان وتحثه على الاعتدال في أموره كلها، ولقد ثبت بما لا يدع مجالاً للتشكيك بأن العلم هو المفتاح الصحيح للتشخيص السليم، ولذلك اتخذه المتقون حارساً لهم، ومرشداً يستنيرون بحقائقه بغية البقاء على صراط الحق سبحانه وتعالى.[7]

١- الكافي ج٢ ص٥٠

٢- سورة البقرة ٤-٥

٣- سورة البقرة ١١٨

٤- سورة الرعد ٢

٥- سورة الحجر ٩٩

٦- سورة السجدة ٢٤

٧- - ليس كل علم ينفع إلا إذا كان العالم به عالماً بعلم الفهم قبله، وإلا فالعلماء بالمعنى اللغوي كثر. فتأمل جيداً.

يشير أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المقطع إلى صفة الحرص، والحرص كما أخبرنا القرآن الكريم قد يكون ممدوحاً في موارد معينه وممقوتاً في موارد أخرى، فمن الممدوح ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[١] .

في هذه الآية إشارة إلى أن الرسول صلى الله عليه وآله كان حريصا على المؤمنين، والمعنى أنه كان حازماً في تجنيب المؤمنين المهالك والشرور، وهذا حرصٌ منعوتٌ بلا أدنى شك.

أما في الجانب الآخر فإنه جلت قدرته يقول: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾[٢]،

وهذا كما هو واضح حرص قبيح وممقوت.

كان اعتماد المتقين في رحلة التقوى على العلم النوراني لتحديد المواقف التي يكون فيها الحرص ممدوحاً فيحرصون، وبالعلم أيضاً يتركون الحرص في المقامات التي يستقبح فيها، فحرصهم نابع عن علم.

ومن الأمور التي يجدر بالمؤمن أن يحرص عليها، تلك التي أشار إليها أبوعبدالله الصادق عليه السلام في قوله: «احرصوا على قضاء حوائج المؤمنين وإدخال السرور عليهم ودفع المكروه عنهم»[٣].

وفي قبال ذلك قال عليه السلام: «لا تحرص على شيء لو تركته لوصل إليك وكنت عند الله مستريحاً محموداً بتركه، ومذموماً باستعجالك في طلبه»[٤].

نخلص بالنتيجة إلى أنّ المتقين يملكون القدرة على تشخيص الموارد التي ينبغي لهم الحرص فيها من غيرها، وذلك بناءً على علم قد أنار قلوبهم وفتح مداركهم.

١- سورة التوبة ١٢٨

٢- سورة البقرة ٩٦

٣- مستدرك الوسائل ج١٢ ص٤٠٣

٤- مستدرك الوسائل ج١٢ ص٦٠

٥. علمٌ في حلم:

قال الإمام الباقر عليه السلام "عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد"[1] .

مما نستفيده من قول الإمام عليه السلام هو حجم الفضل الذي خصّ الله تعالى به العلماء الذين يفيدون الآخرين بعلمهِم، فالعالم يزدان باطنه إذا أفاد الطالبين، وفتح صدره لهم لينهلوا مما أفاض به الله تعالى عليه.

ولكن أمر الإفادة لا يخلو من أشواك هي في الغالب تعترض طريق العالِم، ومنها شوكة ذاك الذي جُبِلَ على حب الجدال العقيم والإستخفاف بالآخرين، وهنا يأتي دور الحلم الذي هو نقيض الغضب والعصبية، ولا يخفى أن المتقين ما كان ليطلق عليهم لقب المتقين لو أنهم لم يراقبوا الله في سكناتهم وحركاتهم، ومن المعلوم أن الله سبحانه وتعالى منبع الحلم والأناة، كما أن حلمه جل وعلا لا يحتاج إلى برهان أو دليل، فالإنسان لا يزال يتمتع ويتمرغ في نعم الخالق جلت قدرته في ذات الوقت الذي يتفنن في ابتكار أنواع وطرق جديدة للمعصية، وهذا إن دل فإنه يدل على حلم الله لا إله إلا هو سبحانه الحليم الرؤوف.

لذلك سعى المتقون للتحلي بهذه الصفة الجليلة عندما يعترضهم قليلوا الاستيعاب أو عشّاق الجدال العقيم، ومن هنا كان علم المتقين مؤدباً أنيقاً راقياً وكثير الفائدة.

٦. قصدٌ في غنىً:

أشرنا في صدر الكتاب إلى أن الشغل الشاغل للمتقين يتمحور حول مركزية المحافظة على حد الاعتدال في كل بواعثهم النفسانية، وهذا ينعكس سلوكاً في ملبسهم ومأكلهم ومعاملاتهم وغير ذلك.

إنّ أهل التقوى – في واقع الأمر – أغنياء على جميع الأصعدة، فهم أغنياء في علمهم ولكنهم لا يتظاهرون بأنهم علماء أو أنهم أفضل من غيرهم، كما أنهم أغنياء بتقواهم ولكنهم يخالطون الناس بكل أريحية ودون أدنى عُجْب، فهم لا يشعرون بالفقر إلا لله جل شأنه، أما بين الناس فهم الأغنياء حقاً.

١- الكافي ج١ ص٣٣

وإذا كان الواحد منهم قد أنعم الله عليه بغنىً مادي فأصبح من أصحاب المال والأملاك، فإنه لا يخرج عن حد الاقتصاد أبداً، حيث أنّ قول المولى تبارك ذكره ﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾[1] قائمٌ أمامه ويسنده قوله تعالى ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾[2] .

في الآيتين بيان واضح لبُعد أهل الإسراف والتبذير عن الله جلت قدرته، وهذا يعني فرار الذين يتقون الله سبحانه من هاتين الصفتين كفرارهم من نيران العذاب.

٧. خشوعٌ في عبادة:

إن حقيقة الخشوع كما يذكرها آية الله العظمى السيد الخميني قدس سره هي: عبارة عن الخضوع التام الممزوج بالحب أو الخوف وهو يحصل من إدراك الجلال والجمال وسطوتهما وهيبتهما.[3]

وهذه الحالة تتجلى بهّية في حال الصلاة، ولكن هذا لا يعني أنّ المتقين لا يتصفون بالخشوع إلا في صلاتهم والعبادة أعم من حركة أو ممارسة، فالشهيق والزفير عبادة، النوم والمشي عبادة، الأكل والشرب عبادة، بل الواقع يقول بأن حياة الإنسان برمتها إنما هي عبادة في عبادة، لذلك تجد المتقين خُشّع في نظراتهم وحركاتهم وأنفاسهم، فكل لحظة تمر على المتقين تمثل بارقة من الخشوع والخضوع للمولى عزّ وجل، كيف لا وهو القائل ﴿ وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾[4] .

كما أنه سبحانه وتعالى جعل الخاشعين ورثة للفردوس، فقال ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[5] .

١- سورة الأعراف ٣١

٢- سورة الإسراء ٢٧

٣- الآداب المعنوية – آية الله العظمى السيد الخميني ص٣٢

٤- سورة البقرة ٤٥

٥- سورة المؤمنون ٢-١١

ينتج الخشوع عن المعرفة والإدراك، ومن ثم مراقبة الحق تبارك ذكره، فتخرج الدنيا بمن فيها من القلب ولا يكون الحب إلا لله، ولا يكون الخوف إلا من الله، عندها يلج الخشوع في كل جزء وذرة من الإنسان بدناً وروحاً.

وليردد كل من أراد الإحساس بجمال الخشوع قول أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء الصباح: «واغرس اللهم بعظمتك في شرب جناني ينابيع الخشوع».

٨. تجمُّل في فاقة:

الفاقة هي الفقر المدقع مع تقطع الأسباب وانسداد الأبواب، وإذا كان هذا هو حال المتقين، فإنهم يرجعون إلى الكتاب العزيز ليجدوا المولى عز وجل يتحدث عنهم في قوله ﴿لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾[١] .

فيحصل العلم بأنه ليس من التقوى أن يُبدوا حاجاتهم لغير الله سبحانه وتعالى، بل أن ذلك ليس من العقل أصلاً ؛ حيث أنّ العلة الأصلية لقضاء الحاجات وتدبير الأمور هو مدبرها عزّ وجل، وفي ذلك يقول الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: «من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم يسدوا فاقته، ومن أنزلها بالله أوشك الله الغنى إما موتاً عاجلاً أو غنىً آجلاً «[٢].

لذلك دأب المتقون على الظهور بوجه بشوش ولباس يدل على الكفاية ومزاج باسم دائماً، وهذا هو التجمُّل الذي يجعل من شخصية المتقي شخصية كريمة وعزيزة بين العباد، فيكونون قد استغنوا في الأصل عن العباد مع بقاء فقرهم لله سبحانه وتعالى، وهذا هو روح العز والشرف.

وقد ورد عن أئمة الهدى (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) في خصوص التجمل ما يشفي الصدور ويطيب الجروح، وهذا هو الإمام الصادق عليه السلام يقول: «إن الله عز وجل يحب الجمال والتجمل ويبغض البؤس والتباؤس»[٣] .

بل إن التجمل يتجاوز هذه الحدود حتى ترى المتجمل يستحي أن يأخذ الصدقة، والتي

١- سورة البقرة ٢٧٣

٢- مستدرك الوسائل ج١١ ص٢١٧

٣- الكافي ج٦ ص٤٤٠

هي له من عند الله سبحانه وتعالى أجراها في يد عبدٍ من عباده..

يقول أبوعبدالله الصادق عليه السلام: «تُعطى صدقة الأنعام لذوي التجمل من الفقراء لأنها أرفع من صدقات الأموال، وإن كان جميعها صدقة وزكاة ولكن أهل التجمل يستحيون أن يأخذوا صدقات الأموال»[1].

فالتجمُّل إذاً سجية من سجايا أهل التقوى، قد لبسوها وتزينوا بها فكانت حلاوةً يتذوقها الناظر إذا نظر إلى وجه أحدِهم، نسأل الله أن يجعلنا منهم إنه عزيز قدير.

١ـ وسائل الشيعة ج٩ ص٢٦٣

٩. صبرٌ في شدة:

يقول الباري عزّ وجل: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾[١].

يعلم أهل العلم وأصحاب القلوب الطاهرة والأنفس الصافية، أنّ الصبر ملكة تلعب الدور الأكبر والأهم في السمو بالعبد صوب جمال الإنسانية، بعد أن يستشعر بها عز الربوبية وذل العبودية.

والصبر بحلاوته ينقسم إلى أقسام ثلاثة هي:

١- الصبر في البلايا والمصائب.

٢- الصبر على الطاعات.

٣- الصبر عن المعاصي.

وتتفرع عن هذه الأصول الثلاثة فروع أخرى، تمثل الموارد التي يجب فيها الصبر وضبط النفس في سبيل التخلص من سجن الدنيا، فالتقرب من المولى جل وعلا، ومن ثم التحليق في عالم القرب والوصول.

الصبر في اللغة ضد الجزع ولكنه في الواقع أعم من ذلك، حيث أن عدم الصبر على الطاعات من صلاة وصيام وما إلى ذلك لا نسميه جزعاً، فالصبر في هذا المورد يعني التحمل بالركون إلى جانب الملكات النورانية في النفس لتغليبها على قوى الوهم الشيطانية، بل أنه يذهب إلى أبعد من هذا ليكون صبراً على نيل اللامحسوسات من الجنان وما وعد الله به المؤمنين من خلود في نعيمٍ وسعادةٍ أبدية، وهذا الصبر إذا ما اقترن باليقين والتصديق الذي لا يتخلله شك فإنه بالفعل ينتقل بصاحبه إلى دنيا ليست كهذه الدنيا حيث النور يكسوها ويبطّنها، وهذه هي الحياة التي قال الله سبحانه وتعالى بشأنها ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[٢].

١- سورة البقرة ١٥٥- ١٥٦

٢- سورة الأنعام ١٢٢

إن الصبر في جميع موارده هو كالقائد الرشيد لمن يسلّم له ناصيته ليقوده في الاتجاه الصحيح نحو عُقبى الدار، وفي ذلك يقول المولى جلت قدرته ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾[١].

نسأل الله القدير أن يجعلنا من الصابرين فيوفينا أجورهم إنه سميع مجيب.

١٠. طلبٌ في حلال:

عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «كان علي بن الحسين عليه السلام إذا أصبح خرج غادياً في طلب الرزق، فقيل له: يابن رسول الله أين تذهب؟

فقال عليه السلام: أتصدق لعيالي.

قيل له: أتتصدق؟

فقال عليه السلام: من طلب الحلال فهو من الله عز وجل صدقة عليه»[٢].

وعن عبد الأعلى مولى آل سام قال: «استقبلتُ أباعبدالله عليه السلام في بعض طرق المدينة في يوم صائف شديد الحر، فقلتُ: جُعِلتُ فداك، حالك عند الله عز وجل وقرابتك من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وأنت تجهد نفسك في مثل هذا اليوم.

فقال عليه السلام: يا عبد الأعلى، خرجتُ في طلب الرزق لأستغني عن مثلك»[٣].

وقال أبوجعفر عليه السلام: «من طلب الرزق في الدنيا استعفافاً عن الناس، وتوسيعاً على أهله، وتعطفاً على جاره، لقي الله عز وجل يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر»[٤].

بيّنت لنا السابقة تفصيلات الحد الأول من علامة (طلب في حلال)، فاتضحت علة السعي في طلب الرزق، وبها بطل اعتقاد من يظنون بأنّ ابتغاء كنز الأموال والاستزادة للدنيا هما الهدفان من وراء العمل والطلب، فالرسول الأعظم صلى الله عليه وآله يقول: «الشاخص في طلب الرزق

١- سورة الرعد ٢٢

٢- الكافي ج٤ ص١٢

٣- الكافي ج٥ ص٧٤

٤- الكافي ج٥ ص٧٨

الحلال كالمجاهد في سبيل الله»[1]، والجهاد لا يكون في سبيل الله إلا إذا كان المراد منه هو وجه الله سبحانه، فإن قلنا بأن كل جهاد يُراد به وجه الله هو جهاد في سبيل الله، ومن ثم رجعنا إلى قول الرسول ﷺ وجدنا أن الطالب للرزق الحلال لا يكون إلا مؤمنا تقياً ورعاً، لأن الحلال يقتضي حلّية المصدر، والناقل والمبتاع، ولكلٍ من الأطراف الثلاثة تفصيلات وتفريعات لو تعمقنا في مضامينها لعلمنا بأن الشاخص في طلب الرزق الحلال هو قطعاً من المؤمنين الأتقياء.

ومن هنا نقول بأن طلب الرزق واجبٌ عقلي على من أراد الاستغناء بنفسه عن الآخرين وبالله عن نفسه، فيحيا عفيفاً، كريماً وعزيزاً.

أما حلّية الكسب والتي تترتب عليها حلّية الملبوس والمأكول والمشروب والمركوب والمنكوح وأشباهها، فهي تصُّب إيجاباً في الحوض الاقتصادي للمجتمع، وهذه الحلّية تلعب – وبلا أدنى شك – الدور الأكبر في صفاء النفس وتزكيتها، وفي هذا يقول الرسول ﷺ: «من أكل الحلال قام على رأسه ملك يستغفر له حتى يفرغ من أكله»[2] .

فمتابعة الحلال والبحث عنه وتجنُّب الحرام ورفضه هما ركيزتا العدل في المجتمع، فبالحلال وانتشاره تتحقق المساواة بين الناس، وهذا هو أمير المؤمنين عليه السلام الذي لو أراد لحوّل حبات الرمال إلى ذهب بقدرة الله العلي القدير يقول: «إني لأعمل في بعض ضياعي حتى أعرق، وإنَّ لي من يكفيني، ليعلم الله عز وجل اني أطلب الرزق الحلال»[3].

فأهل التقوى عاملون طالبون للرزق الحلال دائماً وأبداً، نسأل الله أن يجعلنا منهم إنه عزيز قدير.

١١. نشاطٌ في هدى:

النشاط هو طيب النفس للعمل والإقبال عليه دون كسل أو ملل، و أحياناً أخرى نجد بأن هذا النشاط قد ملأ الروح وصار يتعدى حدود العقل والعقلنة، فتكثر الزلات وتتلاحق السقطات، لذلك كان على النشِط أن يلتزم مضماراً قد حُدَّ بسياجي العقل السليم والنقل

١- مستدرك الوسائل ج١٣ ص١٢

٢- بحار الأنوار ج٦٣ ص٣١٤

٣- الكافي ج٥ ص٧٧

الصحيح، وهو الهدى المنشود، فلا يحيد يمنةً ولا يسرة إلا و يجد موجهاً ومرشداً يجعله دائماً على الخط المستقيم.

وقد أوضح لنا المولى تبارك ذكره الطرق الصحيحة لاستحصال الهدى المنشود فقال سبحانه وتعالى ﴿ الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * و وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[1] .

من الواضح الجلي أنّ المتقين هم المهتدون حيث أنه لا انفصال بين اليقين والهداية، فمن أراد الهدى عليه بالتقوى، ومن كان من أهل التقوى فاز بهدى الله سبحانه وتعالى.

وعودٌ على بدء، نقول بأن النشاط في طلب الرزق وطلب العلم والزوجة الصالحة وتربية الأبناء ومخالطة العباد، بل إنّ النشاط في الحياة بما هي حياة إذا لم يستند إلى هدى وتسديد من الله عز وجل، فإنه سوف يكون في كثيرٍ من الأحيان نقمة على صاحبه والمجتمع المحيط به.

إن النشاط بأحواله لا يخرج عن كونه عملاً قد يكون مشكوراً وقد يكون ممقوتاً، لذلك تجد المولى سبحانه يقول: «وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات»[2]

فالعمل يبقى في دائرة الهدى إذا ما هو تجلبب بجلباب الصلاح.

فما هو الصلاح؟

للإجابة نقول:

بعد أن علمنا بأن النشاط هو العمل وإن العمل إما أن يكون صالحاً أو طالحاً، بقي علينا أن نتعرف على علامات أفراد الصالحات كي نستوعب الطالحات فنتجنبها، وذلك من باب أن الأشياء تعرف بأضدادها.

لذا، نشرع هاهنا باستعراض بعض الآيات القرآنية:

قال تعالى ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ﴾ [3]، ويقول سبحانه ﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ

١- سورة البقرة ١-٥

٢- سورة البقرة ٢٥

٣- سورة البقرة ٢٥

وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾[1]، ويقول جل وعلا: ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ ﴾[2] وقال عز وجل ﴿ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ النَّاسِ ﴾[3] .

نلاحظ أنّ المولى عزّ وجل قد قرن الصلاح بالإيمان تارة، وثانية بالتوبة، وثالثة بالبر والتقوى، فالظاهر أن تلك العوامل الأربعة تمثل البواعث الأساسية للعمل الصالح، وقد نؤكد على مدعانا بقوله سبحانه: ﴿لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[4].

إنّ المولى تبارك ذكره يخبر بأن الصالحين على درجاتٍ ورُتب بدلالة (من)، فالذين يقومون الليل ويؤمنون بالله وبيوم الحساب، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويسارعون في الخيرات كقضاء حوائج المؤمنين وإصلاح ذات البين، والبذل في سبيل إعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى، يمثلون شريحة من الصالحين الذين وعدهم الله جل ذكره بالجنة إذا كان صلاحهم مقترنٌ بالإيمان والتوبة النصوح والتقوى.

لذا، فليكن في علمنا بأنّ النشاط في هدى هو عمل الخيرات والصالحات بكل جد وإخلاص و دون ملل أو كلل.

١٢. تحرجٌ عن طمع:

إن هذه العلامة هي روح الإيمان ولُبُّ التقوى، وبها يدخل العبد في تجارةٍ رابحة — بلا ريب — مع الله جل وعلا، وفيها يقول سبحانه: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَاللّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾[5]،

وقال تعالى ﴿ نَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ

١- سورة البقرة ٦٢

٢- سورة البقرة ١٦٠

٣- سورة البقرة ٢٢٤

٤- سورة آل عمران ١١٤

٥- سورة البقرة ٢٠٧

فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[1].

إن انطلاق العبد نحو الله سبحانه وتعالى فالفوز بما لا يتصوره عقل ولا خيال، يبدأ من التحرج في هذه الدنيا، والتحرج هو التضييق على الذات، بل الزهد في كل ما يخص استيفاء شهوات النفس الشيطانية، والهدف من ذلك ينحصر في أمرين ثانيهما ناتج عن أولهما، هما:

١- رضا الله عز وجل

٢- والذي ينتج عنه الفوز بالجنة، وذلك هو الفوز العظيم.

أما التضييق على النفس فيتمكن منه العبد بدخوله في معسكر الجهاد الأكبر، وهو الجهاد الذي يروي لنا أمير المؤمنين عليه السلام قصته فيقول: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله بعث سرية، فلما رجعوا قال: مرحباً بقومٍ قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر.

قيل: يا رسول الله، وما الجهاد الأكبر؟

فقال صلى الله عليه وآله: إن أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه»[2].

ولكي نلمس المعنى، نقول بأن في كل مرة نخالف فيها هوى النفس نكون قد اشترينا سهماً في بورصة رضا الله سبحانه وتعالى، ولا يكون ذلك إلا بعد أن نتعلم ونقف على حقيقة بوار سوق الدنيا، فلا يوجد فيها ما يستحق أن نبذل من أجله الرخيص فضلاً عن النفيس، وقد ذمَّ الله تبارك ذكره الدنيا في غير مكان، فقال ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآَخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُون ﴾[3] وقال سبحانه ﴿ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ ﴾[4] .

وفي تصوير يغني المقام، يقول تعالى ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآب ﴾[5] .

١- سورة التوبة ١١١

٢- وسائل الشيعة ج١٥ ص١٦٣

٣- سورة البقرة ٨٦

٤- سورة إبراهيم ٣

٥- سورة آل عمران ١٤

وفي رائعة أخرى يقول جل شأنه: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1].

لذا كان أهل التُقى والورع في تحرجٍ دائم، طمعاً في جنة لا أوسع منها ولا أبهى.

١- سورة يونس ٢٤

(مساءٌ وصباح ملؤهما الشكر والذكر)

قوله عليه السلام:

«يَعْمَلُ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وَ هُوَ عَلَى وَجَلٍ، يُمْسِي وَهَمُّهُ الشُّكْرُ، وَيُصْبِحُ وَهَمُّهُ الذِّكْرُ»

استدامة الوجل:

ذكرنا فيما مضى أهمية وتأثير الأعمال الصالحة في حياة العبد، ولا يخفى أن تلك الأهمية وذاك التأثير يظهر فاصلاً نافعاً في ذلك اليوم الذي لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون إلا من اتى الله بقلبٍ سليم.

ولكننا نقف هنا أمام سؤال:

هل أن العمل الصالح يوجب على الله إدخال عامله الجنة؟

قبل الإجابة على هذا السؤال نتوجه أولاً لبحث مسألة قبول العمل الصالح فنقول: متى يكون العمل الصالح مقبولاً عند الله سبحانه وتعالى؟

يقول الله جل شأنه:﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾[1]، وقال جل وعلا ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ

١ـ سورة البقرة ٢٧٢

الظَّالِمِينَ﴾[1]، وقال تعالى ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾[2]، وقال سبحانه ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾[3]، وقال عز وجل ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾[4]، وقال جلت قدرته ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً﴾[5].

من الواضح أن العمل لا يكون مقبولاً عند الله سبحانه وتعالى إلا إذا كان الباعث عليه هو ابتغاء وجهه الكريم، أما ما دون ذلك فهو هباءٌ منثور ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً﴾[6].

ينبغي أن يكون العمل الصالح خالصاً لوجه الله تعالى، خالياً من الرياء وطلب السمعة، ولا يكون ذلك إلا إذا أخرج العبد حب الدنيا من قلبه و أسكن محله عشق الله وحده، وهذا بلا شك يحتاج إلى عملٍ دؤوب في سبيل تربية النفس وتهذيبها.

أما ما يكفل للإنسان دخول الجنة فقد أوضحه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الخطبة الآتية:

عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن أبيه، عن أبيه الحسين بن علي عليه السلام قال: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله أوصى إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وكان فيما أوصى به أن قال له:

(يا علي من حفظ من أمتي أربعين حديثاً يطلب بذلك وجه الله عز و جل والدار الآخرة، حشره الله يوم القيامة مع النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً.

فقال علي عليه السلام: يا رسول الله أخبرني ما هذه الأحاديث.

فقال صلى الله عليه وآله: أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، وتعبده ولا تعبد غيره، وتقيم الصلاة بوضوءٍ سابغٍ في مواقيتها ولا تؤخرها، فإنّ في تأخيرها من غير علة غضب الله عز وجل، وتؤدي الزكاة،

١- سورة الأنعام ٥٢

٢- سورة الرعد ٢٢

٣- سورة الروم ٣٩

٤- سورة لقمان ٢٢

٥- سورة الإنسان ٩

٦- سورة الفرقان ٣٢

وتصوم شهر رمضان، وتحج البيت إذا كان لك مال وكنت مستطيعاً، وأن لا تعقَّ والدَيك، ولا تأكل مال اليتيم ظلماً، ولا تأكل الربا، ولا تشرب الخمر ولا شيئاً من الأشربة المسكرة، ولا تزني، ولا تلوط، ولا تمشي بالنميمة، ولا تحلف بالله كاذباً، ولا تسرق، ولا تشهد شهادة الزور لأحدٍ قريباً كان أو بعيداً، وأن تقبل الحق ممن جاء به صغيراً كان أو كبيراً، وأن لا تركن إلى ظالمٍ وإن كان حميماً قريباً، وأن لا تعمل بالهوى، ولا تقذف المحصنة، ولا ترائي فإنّ أيسر الرياء شركٌ بالله عز وجل، وأن لا تقول لقصير يا قصير، ولا لطويل يا طويل تريد بذلك عيبه، وأن لا تسخر من أحد من خلق الله، وأن تصبر على البلاء والمصيبة، وأن تشكر نعم الله التي أنعم بها عليك، وأن لا تأمن عقاب الله على ذنب تصيبه، وأن لا تقنط من رحمة الله، وأن تتوب إلى الله عز وجل من ذنوبك فإن التائب من ذنوبه كمن لا ذنب له، وأن لا تُصِّر على الذنوب مع الاستغفار فتكون كالمستهزئ بالله وآياته ورسله، وأن تعلمَ أنّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأن لا تطلب سخط الخالق برضى المخلوق، وأن لا تؤْثِر الدنيا على الآخرة؛ لأن الدنيا فانية والآخرة باقية، وأن لا تبخل على إخوانك بما تقدر عليه، وأن تكون سريرتك كعلانيتك، وأن لا تكون علانيتك حسنة وسريرتك قبيحة فإن فعلت ذلك كنت من المنافقين.

وأن لا تكذب ولا تخالط الكذابين، وأن لا تغضب إذا سمعت حقاً، وأن تؤدّبَ نفسك وأهلك وولدك وجيرانك على حسب الطاقة، وأن تعمل بما علمت، ولا تعاملنّ أحداً من خلق الله عز و جل إلا بالحق، وأن تكون سهلاً للقريب والبعيد، وأن لا تكون جباراً عنيداً، وأن تكثر من التسبيح والتهليل والدعاء وذكر الموت وما بعده من القيامة والجنة والنار، وأن تكثر من قراءة القرآن وتعمل بما فيه، وأن تستغنم البر والكرامة بالمؤمنين والمؤمنات، وأن تنظر إلى كل ما لا ترضى فعله لنفسك فلا تفعله بأحدٍ من المؤمنين، وأن لا تمل من فعل الخير ولا تُثقِل على أحد إذا أنعمت عليه، وأن تكون الدنيا عندك سجناً حتى يجعل الله لك جنة.

فهذه أربعون حديثاً من استقام عليها و حفظها عني من أمتي دخل الجنة برحمة الله، وكان من أفضل الناس وأحبهم إلى الله عز وجل بعد النبيين والصديقين، وحشره الله يوم القيامة مع النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً)[1].

وصايا درّية تضيء بلا نار..

١- بحار الأنوار ج٢ ص١٥٤

إن هذا اللذي أوصى به المصطفى ﷺ علياً عليه السلام دستور سلوكي ضامن قطعاً وحتماً لحياة كريمة يحياها الإنسان مع نفسه، والمجتمع فيما بين أفراده، إلا أنّ هذا الضمان نافع هنا في هذه الدنيا، ولكنه ينسحب في ذلك اليوم الذي يعلق فيه كل شيء على رحمة الله تعالى، فلو جاء إنسان بأعمال صالحة وحسنات بمقدار يسع الكون بما فيه، فإن غاية ما تحققه له في يوم الحساب أنها تؤهله لقائمة المنتظرين للرحمة الإلهية، وهو قول المولى تبارك ذكره: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[1]، فأهل الجنة إنما دخلوها برحمة الله سبحانه وتعالى، ولذلك ذيَّل الرسول الأكرم ﷺ وصاياه لعلي عليه السلام بقوله «دخل الجنة برحمة الله».

لذلك فإن الوجل لايمكن أن يفارق قلوب المتقين، فهم قد وضعوا جُلّ ثقتهم في الله تبارك ذكره، وانتزعوها كلياً من أعمالهم الصالحة لخوفهم من تسلل الشيطان إليها على غفلة منهم فتكون هباءً منثوراً، وهذا هو المخيف حقاً حقاً..

لماذا الشكر؟

إنّ شكر الشاكر يعني إقراره بتفضل المُنعم عليه، وهو أداة لصيانة النفس من عطب الغرور وآفة العُجب، كما أنه اعتراف صريح بالضعف الدائم والحاجة السرمدية للمولى سبحانه وتعالى، وقد أوردنا في الصفحات السابقة الآيات التي تبين لنا مكانة الشكر وأهميته لاستمرارية إفاضة النعم الإلهية على العبد الشاكر.

لماذا الذكر:

ذكر التاريخ في قصة حاتم الطائي الذي اشتهر بالكرم والعطاء المنقطع النظير أن أهله كانوا معارضين مبالغته في الكرم، وفي يوم عاتبته زوجته فرد عليها قائلا:

أوامية إن المال غادٍ ورائح ويبقى من المال الحديث والذكر

وقد صدقت مقولة الطائي، حيث أنّ الناس اتخذوه مضرباً للكرم والجود على مر مئاتٍ من السنين، وما كان ذلك ليكون لولا تميزه بهذه الخصلة الحسنة التي تمثل محطة جذب للإنسانية، فكيف بنا بمن كانت كل صفات الخير هي عين ذاته؟

١- - سورة القيامة ٢٢-٢٣

ألا يجب علينا أن نوقف القلوب والألسن على ذكره والثناء عليه؟ أوليس من أعطى الكرم لحاتم الطائي أحق بأن يُذكر بكل حين؟

حتى لو كان ذلك منّا فإننا لا نفي أقل القليل من حق الله تعالى علينا، ولكننا سوف نستشعر نوراً وبرداً تنتعش بهما قلوبنا؛ حيث أنّ الشكر فيه تحقيق لجانب من جوانب الإنسانية، وهذا مانحتاجه حقاً.

لذلك كان شغل المتقين الشاغل هو ذكر الله جل وعلا، فكانوا مصداقاً لقوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[1] .

كما أنه لا يفوتنا أن نذكر دور الذكر في تطهير القلوب، فبه تتمخض الطمأنينة التي يحدد الله السبيل إليها بمفتاح الذكر فيقول: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[2].

إن هذا الذكر الذي نردده بألسنتنا ربما رددناه ونحن جاهلون بالقوة والطاقة العظيمة المكنونة بين ثنايا حروفه، ولكننا وبالرجوع إلى أحاديث أئمة الهدى عليهم السلام نصاب بندمٍ لا مثيلَ له على ما ضيعناه من سنوات وأيام ، بل وحتى لحظات دون أن نرطب ألسنتنا، ونجلي ظلمات قلوبنا بذكر المولى حبيبنا سبحانه وتعالى، وهذا هو الإمام الصادق عليه السلام يقول مبيّناً في حديثه الرائع:

«إِعْرَابُ الْقُلُوبِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْوَاعٍ: رَفْعٍ، وَفَتْحٍ، وَخَفْضٍ، وَوَقْفٍ.

فَرَفْعُ الْقَلْبِ فِي ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَفَتْحُ الْقَلْبِ فِي الرِّضَى عَنِ اللَّهِ، وَخَفْضُ الْقَلْبِ فِي الِاشْتِغَالِ بِغَيْرِ اللَّهِ، وَوَقْفُ الْقَلْبِ فِي الْغَفْلَةِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى.

أَلَا تَرَى أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهَ بِالتَّعْظِيمِ خَالِصاً ارْتَفَعَ كُلُّ حِجَابٍ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ، فَإِذَا انْقَادَ الْقَلْبُ لِمَوْرِدِ قَضَاءِ اللَّهِ بِشَرْطِ الرِّضَى عَنْهُ، كَيْفَ يَنْفَتِحُ بِالسُّرُورِ بِالرَّوْحِ وَالرَّاحَةِ..!!؟

وَإِذَا اشْتَغَلَ قَلْبُهُ بِشَيْءٍ مِنْ أَسْبَابِ الدُّنْيَا، كَيْفَ تَجِدُهُ إِذَا ذَكَرَ اللَّهَ بَعْدَ ذَلِكَ وَأَنَابَ مُنْخَفِضاً مُظْلِماً كَبَيْتٍ خَرَابٍ خَاوٍ لَيْسَ فِهِ عُمْرَانٌ وَلَا مُؤْنِسٌ..!!؟

١- سورة آل عمران ١٩١

٢- سورة الرعد ٢٨

وَإِذَا غَفَلَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ تعَالَى، كَيْفَ ترَاهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَوْقُوفاً وَمَحْجُوباً قَدْ قَسَا وَأَظْلَمَ مُنْذُ فَارَقَ نُورَ التَّعْظِيمِ..!!؟

فَعَلَامَةُ الرَّفْعِ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ: وُجُودُ الْمُوَافَقَةِ، وَفَقْدُ الْمُخَالَفَةِ، وَدَوَامُ الشَّوْقِ.

وَعَلَامَةُ الْفَتْحِ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ: التَّوَكُّلُ، وَالصِّدْقُ، وَالْيَقِينُ.

وَعَلَامَةُ الْخَفْضِ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ: الْعُجْبُ، وَالرِّيَاءُ، وَالْحِرْصُ.

وَعَلَامَةُ الْوَقْفِ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ: زَوَالُ حَلَاوَةِ الطَّاعَةِ، وَعَدَمُ مَرَارَةِ الْمَعْصِيَةِ، وَالْتِبَاسُ عِلْمِ الْحَلَالِ وَ الْحَرَامِ»[1] .

وَ قَالَ عليه السلام «مَنْ رَعَى قَلْبَهُ عَنِ الْغَفْلَةِ، وَنَفْسَهُ عَنِ الشَّهْوَةِ، وَعَقْلَهُ عَنِ الْجَهْلِ فَقَدْ دَخَلَ فِي دِيوَانِ الْمُتَنَبِّهِينَ، ثُمَّ مَنْ رَعَى عِلْمَهُ عَنِ الْهَوَى، وَدِينَهُ عَنِ الْبِدْعَةِ، وَمَالَهُ عَنِ الْحَرَامِ فَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ الصَّالِحِينَ»[2] .

إنّ العاقل وصاحب الإحساس والشعور يعزم بعد أن علم أهمية الذكر وآثاره العجيبة على الاقتداء بالمتقين الذين يصبحون و همُّهم الذكر، فلولا أنهم قد لمسوا وتيقنوا آثاره لما كان همهم وشغلهم، هذا بالإضافة إلى أن الله جل شأنه قد أمر المؤمنين بالذكر فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾[3] .

وقد حلّق الرسول صلى الله عليه وآله بالذكر فقال «لَذِكرُ الله بالغدو والآصال خير من حطم السيوف في سبيل الله»[4].

هذا ولو أننا نتدبر قوله تعالى ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[5] لفهمنا معنى أن يكون الإنسان الخطَّاءً كثير الذنوب، ولكنه مذكورٌ عند الله سبحانه وتعالى بالخير ذكراً يتفرع على ذكر نفس هذا الإنسان لله عز وجل، فأي جائزة عظيمة هذه التي يمن الله تبارك ذكره على عباده الذاكرين!!

فسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

١ـ مستدرك الوسائل ج١٢ ص١٧٠

٢ـ مستدرك الوسائل ج١٢ ص١٧٠

٣ـ سورة الأحزاب ٤١ ـ ٤٢

٤ـ وسائل الشيعة ج٧ ص١٥٠

٥ـ ـ سورة البقرة ١٥٢

(المتقي ما بين الحذر و الأمل)

قوله عليه السلام:

«يَبِيتُ حَذِراً، وَيُصْبِحُ فَرِحاً. حَذِراً لِمَا حُذِّرَ مِنَ الْغَفْلَةِ، وَفَرِحاً بِمَا أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ»

يختص فعل (بات) بالعمل الذي يكون في الليل ويمتد إلى الصباح أو قبيله، فيقال: بات يصنع كذا.

أما بالنهار فيقال: (ظلَّ) عِوضاً عن (بات).

يتحدث أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الموعظة —كما هو معلوم — عن المتقين الذين أشار مسبقاً إلى حالاتهم الليلية فقال «أما الليل فصافون أقدامهم.... الخ».

ثم أنه عليه السلام جاء في هذه الفقرة من الموعظة فقال «يبيت حذراً»، وهذا يعني أنه يعكف في الليل على عمل من شأنه أن يمنع محذوره من الوصول إليه، وحذر أهل التقوى كما يصرح أمير المؤمنين عليه السلام هو حذر من الغفلة، والسؤال هنا:

ماهي الأمور التي يجب ألاّ يغفل عنها المؤمن ؟

ينبغي لمن أراد طريق الله سبحانه وتعالى ألاّ يغفل عن كل ذي معنىً مما يحيط به من موجودات محسوسة أو غير محسوسة، وذلك لقطعية دلالتها على الله وعلى قانون الله جل وعلا، وكلاهما يحملان ما يحدد مصير الإنسان في الدارين الأولى والأخرى.

وربما تمكنّا من تحديد أهم المجالات التي يجب علينا الالتفات لها ومراعاة عدم الغفلة، وذلك باستعراض بعض الآيات التي تعنى بهذا الأمر.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ﴾[1] .

في هذه الآية المباركة كانت الغفلة بالإشارة الخاصة عن المعاجز التي جاء بها موسى (على نبينا وآله وعليه أفضل الصلاة والسلام)، والتي هي علامة من العلامات الدالة على الله تبارك وتعالى، أما بالشمولية والعموم فإن كل ما هو ممكن فهو يشير ويدل على الله سبحانه وتعالى إمّا بالقرب أو بالبعد التحليليين.

فلو أخذنا أبسط مصنوعات الإنسان وهو الدبوس – مثلاً – والذي بالرغم من صغره وسهولة تصنيعه إلا أنه يحتاج إلى آلات لإخراجه، وهو مع آلاته بحاجة إلى عقلٍ مدبر، والعقل المدبر هو من عجائب مخلوقات العلي القدير جل شأنه، فالدبوس بتأمل بسيط يدل على وجود الله سبحانه وتعالى، وهكذا بالنسبة لكل ممكن في هذا الوجود، وكل شيء دون الخالق فهو ممكن.

فالمورد الأول هو عدم الغفلة عن الآيات الدالة على الله سبحانه وتعالى، وكل موجود دال عليه، فيتحصل وجوب عدم الغفلة عن المحافظة على استمرارية التأمل واستدامة التدبر.

أما الثاني ففي قوله عز وجل ﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾[2] .

إنّ من العوامل التي تسلّم الإنسان إلى الشهوات عامل الغفلة عما هو كائن بعد هذه الحياة الدنيا، من موت وبرزخ ويوم حساب فيه يتم حصاد نتاج الأعمال في الدنيا، فإما إلى جنة أو إلى نار والعياذ بالله.

من هنا كان على الإنسان العاقل ألاّ يغفل عن استذكار هذه الثلاث ليمنع نفسه عن ارتكاب ما يوجب سخط الله سبحانه وتعالى، وقد أشار أمير المؤمنين عليه السلام إلى ذلك في كتابه إلى محمد بن أبي بكر وأهل مصر حين قال: (وأكثروا ذكر الموت عندما تنازعكم إليه أنفسكم من الشهوات، وكفى بالموت واعظاً، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله كثيراً ما يوصي أصحابه بذكر الموت فيقول: (أكثروا ذكر الموت فإنه هادم اللذات حائل بينكم وبين الشهوات))[3].

١- سورة الأعراف ١٣٦

٢- سورة الأعراف ١٧٢

٣- وسائل الشيعة ج٢ ص٤٣٦

لذلك كان أمر الموت وما يتبعه من برزخ وحساب واجب التذكر لمن أراد أن يتم رحلته بسلام، أما الغافل فلا حجة له على الله يوم يقف أمام أعماله فيحاسَب على كل صغيرة وكبيرة.

أما الثالث من جملة الموارد فهو المحافظة على القلب حياً يافعاً ينبض بعشق الله سبحانه وتعالى، وهذا لا يكون إلا بالصيانة الدئمة له عن طريق ذكر الله جل شأنه بالقلب واللسان معاً – كما أشرنا سابقاً –، مع الأخذ في الاعتبار ضرورة العمل على تعدي مرحلة لقلقة اللسان في طريق الاستشعار الحقيقي لمعنى الذكر، وهذا على أية حال أمر قد جاءنا من الله تبارك ذكره في قوله ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾[1].

إنّ مقام الذكرى بنفي الغفلة مقام لا يُنال إلا بتوفيق من الله سبحانه وتعالى، وهذا التوفيق لا يجتمع وحب الدنيا في قلبٍ واحد، لذا فإن إخراج حب الدنيا من القلب شرط في التوفيق للذكر وعدم الغفلة.

ألا ترى أن هناك من الناس من يعقد العزم على التزام التدين وتجنب الغفلة، إلا أن هجّام الشهوات يخرب ما عزم عليه فلا يلبث ويعود إلى ماكان عليه من الغفلة، وسر ذلك في قول المولى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[2].

إن مثل هؤلاء لا يخرجون من دائرة الشقاء إلا بالإصرار والعزم على تغيير النفس،بتطهيرها وتصفيتها من المعاصي وكل ما يستقبحه العقل السليم وتبغضه الشريعة السماوية.

أما أهل التقوى فهم ومن بعد أن أضاءوا الليل وأزهروا ظلامه بذكر الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، فإنهم يستقبلون الإشراقة الجديدة للشمس بصدر منشرح فرِحين بالذي أصابوه وأصابهم من الفضل والرحمة، فقيامهم وسجودهم وإحياؤهم الليل جعله الله تعالى تجارة لن تبور، وذلك في قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾[3].

نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم إنه سميع مجيب.

١- الأعراف ٢٠٥

٢- سورة النحل ١٠٧ - ١٠٨

٣- سورة فاطر ٢٩-٣٠

(قرة عين المتقي في مخالفة النفس الأمارة)

قوله عليه السلام :

" إِنِ اسْتَصْعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكْرَهُ لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ، قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لَا يَزُولُ، وَ زَهَادَتُهُ فِيمَا لَا يَبْقَى، يَمْزُجُ الْحِلْمَ بِالْعِلْمِ وَ الْقَوْلَ بِالْعَمَلِ"

أُشبِّه النفس البشرية بالحيوان المفترس إذا ما انفرد بإنسان في غرفةٍ موصدة الأبواب، فتكون النهاية إما بقضاء الحيوان على الإنسان، أو أن المسار يتغير فيستأنس الإنسان ويستألف الوضع.

كذلك هي النفس البشرية التي قال فيها الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ﴾[1]، وقال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[2].

نستشِّف من الآيتين الشريفتين دور النفس في تحديد مسار الإنسان وفقاً لمكانها منه ، مقارنةً بالعقل وقوة الإدراك، فغلبة العقل تعني النجاة، في حين أن النفس إذا تمكنت من استعمار العقل بعمرانها وسيطرت على حدوده ونقاط التفتيش فيه فإنّ المنتهى إلى ضياع وهلاك لا محالة.

وطالما حذَّرنا الله سبحانه والرسول صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام من النفس وحديثها و وساوسها، لأنها تمثل في الإنسان القوة المضادة لقوة الحكمة والخير إذا ما تمردت فانزلقت من مقام الطمأنينة إلى تسافل الأهواء، لذلك كان لزاماً على من يطلب رضا الله سبحانه وتعالى العمل على البحث عن السبل التي تُضعِف هذه القوة المهلكة، وطريق ذلك ترويضها والجد في استئلافها واستئناسها.

١- سورة يوسف ٥٣

٢- سورة ق ١٦

مخالفة النفس:

لنكن على علم بأن كل ما خرج عن حد الاعتدال في الأصول الأخلاقية الأربعة يكون بسبب سيطرة النفس وأهواءها، حيث أن الوقوع في أحد المطبين (الإفراط أو التفريط) دال على اضمحلال دور العقل في مورد الوقوع، أما البقاء على خط الاعتدال فهو مؤشر على قوة العقل وتحكمه بدفة كل ما يصدر من الإنسان.

الأصول الأخلاقية الأربعة[1]:

يُرجِعُ علماء الأخلاق كل ما يصدر من الإنسان من أقوال وأفعال إلى أربع قِوىً يمثل حد الإعتدال في كل واحد منها أصل من الأصول الأربعة، والتي إن رجع لها الإنسان قبل قوله وفعله لكان من العقلاء المتزنين الذين غلَّبوا عقولهم على أهواء أنفسهم.

أمّا القوة الأولى فهي قوة العلم، وحدَّيها جربزة أو بلادة وأصل الاعتدال فيها الحكمة، والقوة الثانية هي قوة الغضب، والشجاعة فيها تقع بين التهور والجُبن، والثالثة هي القوة الشهوية والإفراط فيها شره ويقابله الخمود، أما حد الإعتدال فيها فهي العفة، والقوة الرابعة هي قوة العدل وجانبيها ظلم.

من خلال هذا الإيضاح المبسط، نقول بأن العبد إذا تمتع بالحكمة والشجاعة والعفة والعدالة، فهو قطعاً قد أخضع نفسه الأمّارة لحكومة العقل وهذا هو المبتغى.

ولكن تطبيق ما ذكرناه ليس بسهولة كتابته على صفحات الكتب، فمواجهة النفس وكبح جماحها يحتاج إلى منهجية مدروسة تضمن لنا أفضل النتائج، وهذه المنهجية قد بينها لنا الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة والذي بإمكاننا أن نضع له العنوان التالي:

تأديب النفس بمخالفتها:

لنأخذ المثال التالي كي نبين منهجاً من مناهج ترويض النفس:

١- - ذكرت سابقاً تحت عنوان الأصول الثلاثة

يقول سبحانه وتعالى ﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[1].

إنّ الصلاةَ في أصلها عبارة عن قيامٍ وركوع وسجود، وجلسةٌ بين سجدتين، والصلاة الرباعية لا تستغرق في العادة أكثر من ١٥ دقيقة، ولو قلنا بحساب المتوسط التقريبي بأن الخمس صلوات اليومية تأخذ من وقتنا ساعة كاملة، فإننا نخلص إلى أن هذه الفترة الزمنية هي بالفعل لا تمثل شيئاً إذا تم مقارنتها بأربع وعشرين ساعة خلال يومٍ كامل، ولكن وبالرغم من ذلك نرى النفس تجتهد في إثقال صاحبها وتأخيره عن أدائها إن لم تتمكن من منعه عن الإتيان بها أصلاً، وهذا قطعاً بسبب سيطرة الشيطان على النفس ليقينه من القوة التي تمنحها الصلاة لمن يقيمها بشروطها، لذلك كانت الصلاة كبيرة وثقيلة على غير الخاشعين، فالنفس هنا قد استصعبت على صاحبها ما تكره وهي الصلاة، فما هو سبيل الخلاص من هذا الاستصعاب؟

يقول الإمام عليه السلام بما معناه: (إن كان ذلك فلا تعطِها سؤلها فيما تحب)، أي امنع نفسك من الوصول إلى ما تحب، وذلك قد يكون بالصيام تارة والاعتكاف تارةً أخرى، وما شابه من أمور قد جعل الله سبحانه وتعالى أحد وظائفها تأديب النفس.

وفي هذا الموضوع أشار الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله في إحدى حواراته مع رجل اسمه مشاجع، ونحن هنا نعرض نص الحوار لاحتوائه على مضامين شامخة تفيد القارئ حتماً:

«دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله رَجُلٌ اسْمُهُ مُجَاشِعٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى مَعْرِفَةِ الْحَقِّ؟

فَقَالَ صلى الله عليه وآله: مَعْرِفَةُ النَّفْسِ.

فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَكَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى مُوَافَقَةِ الْحَقِّ؟

قَالَ صلى الله عليه وآله: مُخَالَفَةُ النَّفْسِ.

فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَكَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى رِضَاءِ الْحَقِّ؟

قَالَ صلى الله عليه وآله: سَخَطُ النَّفْسِ.

فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَكَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى وَصْلِ الْحَقِّ؟

١- سورة البقرة ٤٥

فقَالَ ﷺ: هِجْرَةُ النَّفْسِ.

فقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَكَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى طَاعَةِ الْحَقِّ؟

قَالَ ﷺ: عِصْيَانُ النَّفْسِ.

فقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَكَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى ذِكْرِ الْحَقِّ؟

قَالَ ﷺ: نِسْيَانُ النَّفْسِ.

فقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَكَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى قُرْبِ الْحَقِّ؟

قَالَ ﷺ: التَّبَاعُدُ مِنَ النَّفْسِ.

فقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَكَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى أُنْسِ الْحَقِّ؟

قَالَ ﷺ: الْوَحْشَةُ مِنَ النَّفْسِ.

فقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَكَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى ذَلِكَ؟

قَالَ ﷺ: الِاسْتِعَانَةُ بِالْحَقِّ عَلَى النَّفْسِ»[١]

إنه والله لنداء الشفاء من الرسول ﷺ يحذرنا فيه من النفس وشرورها، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قرّة العين:

قرار العين كناية عن المسّرة، والعاقل يسر بالأفضل فالأفضل، ولا أفضلَ من خيرٍ دائمٍ لا يزول، وهو بلا شك الخير الذي عند الله سبحانه وتعالى ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[٢].

فأهل التقوى أطلقوا النظر وحصروا الهدف فيما وعد الله تعالى به المطيعين فكان طمعهم

١ـ مستدرك الوسائل ج١١ ص١٣٩

٢ـ سورة النحل ٩٦

فيه، وسرورهم في السعي إليه وبذل كل ما يبذل في سبيل الفوز به.

و لكن ابتغاء مالا يزول مما هو عند الله جلَّت قدرته لا يتوافق والماديات التي تحلو بها الدنيا، لذلك كان الفوز بالمطلوب مرهونٌ بترك ما دونه لاستحالة اجتماع الاثنين، وهكذا كان المتقون.

مزج القول بالعمل:

تحدثنا سابقاً عن العلاقة التقوائية بين الحلم والعلم، وفي تكرار هذه العلامة من أمير المؤمنين عليه السلام دلالة على أهميتها، وهنا زاد عليها لفظ الامتزاج ممّا يشير إلى عدم الانفصال، وبمعنى آخر نقول: إن الحلم في العلم صار سجيةً في المتقين.

أما بالنسبة للعلاقة بين القول والعمل فهي إن كانت خاملة أو عكسية صارت لغواً لا يُقبل، وذلك لأن قول اللسان من المفترض أن يكون ترجمة لقول العقل وليس من العقل أن يخالف القائل قوله بفعله، وهذا ممقوت عند الله تعالى لقوله ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾[1].

ولا يخفى أنّ القول إذا خلا من عمل يوافقه تصديقاً وتعزيزاً كان إشارة لعدم ثبات شخصية القائل، وقد يوصف قوله بالهراء، ومثل هذا قول الأحوص:

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم ،،،، مذق اللسان يقول مالا يفعل

١ـ سورة الصف ٢ـ٣

(الصفات الملائكية التي يتصف بها المتقون)

قوله عليه السلام:

« تَرَاهُ قَرِيباً أَمَلُهُ، قَلِيلًا زَلَلُهُ، خَاشِعاً قَلْبُهُ، قَانِعَةً نَفْسُهُ، مَنْزُوراً أَكْلُهُ، سَهْلًا أَمْرُهُ، حَرِيزاً دِينُهُ، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ، مَكْظُوماً غَيْظُهُ»

طول الأمل:

(طول الأمل هو استفساح الأجل والتسويف بالعمل، طلباً للراحة العاجلة، وتسليةً للنفس بإمكان التدارك في الأوقات المقبلة، وهذا من أقبح الصفات)[1]، وهو يصرف الإنسان عن مهمات الأمور، ويشغله بلا فائدة منه ولا رجاء، لذلك اجتهد وأجاد المتقون في الحصول على ما يغنيهم عن الناس، كلقمةٍ تسد الجوع، وملبسٍ يكسو البدن، ودارٍ تأويهم، فطول الأمل لا يجد لهم من سبيل لأنهم قد أوصدوا الأبواب في وجهه، خصوصاً بعد أن علموا بما جاء في ذَمِّه من الله ورسوله وأئمة الهدى (عليهم صلوات الله وسلامه)، وهذا هو القرآن الحكيم يخبرنا بأن طول الأمل يمثل سلاحاً من أسلحة الشيطان فيقول: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً﴾[2].

فطول الأمل عبارة عن وعود كاذبة من زعيم الكاذبين الشيطان الرجيم، يبثها في النفوس ليشغلها عن أمر الآخرة فينال بذلك غايته، وقد حذَّرنا الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله عندما قال: «إن أخوف ما أخاف على أمتي الهوى وطول الأمل، أما الهوى فإنه يصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة»[3].

١- نهج البلاغة - خطب الإمام علي (ع) - ج ١ - شرح ص ٩٣

٢- سورة الإسراء ٦٤

٣- بحار الأنوار ج٦٧ ص٧٥

قلة الزلل:

من الأمور التي تفسح المجال أمام الزلات وشائنة الوقعات والسقطات، كثرة المخططات في سبيل بلوغ غاية هي في حقيقتها واهمة، كأن يقول إنسان: أريد أن أكون مليونيراً خلال سنة واحدة!!

ربما وضع هذا الإنسان الخطط التي تؤهله لبلوغ أمله، ومن الطبيعي أن يزداد نشاطه بل يتضاعف وغالباً يخرج عن الهدى بسبب الضغط، لتبدأ الزلات والتزحلقات التي ربما كانت مهلكة.

نفهم إذن من قول أمير المؤمنين عليه السلام: (قليلاً زلله)، بأن المتقي جيد التخطيط والتفكير بتأمل وتدبر، وما إلى ذلك من ملكات راقية تساهم كلها في التقليل من الزلات والسقطات.

خشوع القلب:

يقع الخشوع على ضفاف الخط المقابل للقلوب التي أعيتها الزلات والذنوب فلا يسكنها، بل لا يقترب منها وإن جدَّ صاحبها في طلبه، إلا إذا عمد إلى التصفية والتطهير، عندها سيجد الخشوع يتهادى في إقباله ليذيقه الحلاوة الحقيقية في اتصال العبد بربه.

من هنا نقول بأن خشوع القلب هو أيضا ناتج عن قلة الزلات، ولابد لنا من ملاحظ العبارة جيداً، فأمير المؤمنين عليه السلام قال: (خاشعاً قلبه)، ولم يقل خاشعاً بدنه أو خاشعة جوارحه، لأن القلب إذا خشع خشعت معه كل ذرة في الإنسان، لذلك وجب علينا أن نتوجه بخطابنا الإحيائي للقلب وبصورة مباشرة، فنجعله القائد الروحي لكل جارحة من جوارحنا.

قناعة النفس:

قالها رسول الله صلى الله عليه وآله «القناعة كنز لا يفنى»[1].

وقد قال الشاعر:

١ـ مستدرك الوسائل ج١٥ ص٢٢٦

قنعت فأعتقت نفسي ولن	أملك ذا ثروة رقها
ونزهتها عن سؤال الرجال	ومنة من لايرى حقها
وإن القناعة كنز اللبيب	إذا ارتقت فتقت رتقها
سيبعث رزق الشفاة الغراث	وخمص البطون الذي شقها
فما فارقت مهجة جسمها	لعمرك أو وفيت رزقها
مواعيد ربك مصدوقة	إذا غيرها ففقدت صدقها

إنّ القناعة درعٌ يقي المتدرع به نفسه من سهام الطمع والحسد، بل إنها تورث الراحة والطمأنينة، وحسبنا قول أمير المؤمنين عليه السلام «القناعةُ عزٌ وغنىً، والحرص ذلٌ وعناء»[1].

التنزر في الطعام:

تحدثنا عن تقليل الطعام عندما تناولنا عبارة (وأجسادهم نحيفة) فراجع.

أما قوله عليه الصلاة والسلام « سهلاً أمره « فهو نعت بالبعد عن التعقيد والتكلف، لأنه من عرف حقيقة الدنيا ظهر عليه الزهد فيها واستصغاره لأي تعقيد أو تهويل، فمفتاح تسهيل الأمور هو كشف حقيقة هذه الدنيا الفانية.

ومن الطرق التي تيسّر للعبد التعرف على حقارة الدنيا طريق صحة الاعتقاد، فالعقيدة تضرب حجاباً من نور بين المرءِ وما تكتنفه الدنيا من شهوات وملذات، وهو قوله عليه الصلاة والسلام: « حريزاً دينه «، أي حصيناً لا تلج إليه ظلمات الدنيا، بل هو ساكن آمنٌ بروعة العقيدة.

كظم الغيظ:

الغيظ هو أول الغضب وسورته، وكظمه هو احتراعه فالقضاء عليه ولو ظاهرياً، أما قوله عليه السلام : (مكظوماً غيظه)، ففيه الكثير من جمال البيان وروعة البلاغة الظاهرة في لفظ

١ـ مستدرك الوسائل ج١٢ ص٦٢

(مكظوماً)، والمكظوم هو المكروب، والكربة هنا قد نزلت بالغيظ عندما كُظِمَ، وربما استنتجنا من هذه العبارة مكانة الغيظ من العبد الذي يتقي الله تعالى، وذلك من خلال العلم بأن إنزال الكرب يكون من طرف إلى عدوه لعدم، ومن هنا نعلم أنّ الغيظ عدوٌ للمتقين، والأجدر أن نقول بأن الغضب هو العدو، فكان القضاء على رأسه وهو الغيظ نفياً للشيء بنفي مقدمته.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

نلاحظ هنا بأنه جلّ وعلا قد قرن الإنفاق في السراء والضراء بكظم الغيظ ومن ثم العفو، فجعل الجميع صفة من صفات المحسنين، ولا يخفى أن إلحاق العفو بالكظم فيه إشارة إلى أن كظم الغيظ في حد ذاته قليل الاعتبار، إذا لم يتبعه عفو يطهر القلب وينقّيه من أي شحناء قد تُظلِمُه.

وقال تبارك ذكره ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾[2].

مرة أخرى يرينا المولى عزّ وجل كيف أن تحويل الممقوت إلى محمود هو من فنون الإيمان والتقوى، فنزيل ما من شانه أن يكسبنا السيئات لنحل مكانه ما يغنينا بالحسنات، فالغضب قد يكون نتيجة طبيعية لموقف ما، ولكن الكظم ومن ثم الغفران لفاعل الفعل المسبب لاستثارة القوة الغضبية يعتبران المدرسة التأديبية للنفس، مما يساهم بصورة مباشرة في إنارة القلب ونسف الظلمات.

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: «أركان الكفر أربعة، الرغبة والرهبة والسخط والغضب»[3].

وقال صلى الله عليه وآله «الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الخل العسل»[4].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «الغضب مفتاح كل شر»[5].

١- سورة آل عمران ص١٣٤

٢- سورة الشورى ٣٧

٣- الكافي ج٢ ص٢٨٩

٤- الكافي ج٢ ص٣٠٢

٥- الكافي ج٢ ص٣٠٣

وما أروع قول الإمام الباقر عليه السلام: «إنّ هذا الغضب جمرة من الشيطان توقد في قلب ابن آدم، وإنّ أحدكم إذا غضب احمرت عيناه وانتفخت أوداجه ودخل الشيطان فيه، فإذا خاف أحدكم ذلك من نفسه فليلزم الأرض فإن رجز الشيطان ليذهب عنه عند ذلك»[١].

أما الغضب الممدوح فهو ذلك الذي يكون خالصاً لله وفي الله، وهو من علامات الإيمان، لقول الإمام علي بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام: «من غضب لله تعالى فهو مؤمنٌ حقاً، فهذه صفة الإيمان ودعائمه»[٢].

ولكن الحال هنا لا يخلو من خطورة، حيث أنّ الموقف الذي يكون فيه الغضب محموداً يجب أن يخضع لتشخيصٍ دقيق فلا يخرج من دائرة الحمد ليدخل في دائرة الجلافة والصلافة، كما أن الغضب لا يعني بالضرورة الصراخ واحمرار الوجه، بل أن من علامات غضب المؤمن أن يمتزج بحزن وندم على مسبب الغضب لما سيناله من الله الواحد القهار، وهذا تمام الغضب لله سبحانه، أما ما نجده اليوم من مظاهر العنف المتستر بستار الغضب لله فهو أبعد ما يكون عن قدسية الغضب المنبعث من حب الله والانتصار له تعالى. نخلص بالنتيجة إلى أنّ كظم الغيظ وإنزال الكرب به، إنما يتأتى إذا علمنا ببواعث الغضب ومسبباته، وبالنتيجة تجنُّبه إذا كان بدافعٍ من الشيطان، ولبسناه بضوابطه إذا كان لله تبارك وتعالى.

١ـ الكافي ج٢ ص٣٠٤

٢ـ بحار الأنوار ج٦٥ ص٣٥١

(علاقة المتقين بمن حولهم)

قوله عليه السلام :

« الْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ وَ الشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ، إِنْ كَانَ فِي الْغَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ، وَ إِنْ كَانَ فِي الذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ»

يمتد خط الحق امتداداً طولياً من الله تعالى إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وأولي الأمر من آله المعصومين الأطهار (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين)، وهو قوله تعالى ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ﴾[1]، ومن أراد أن يكون على طول هذا الخط فعليه أولاً استيعاب معناه والإحاطة بمعالم نوعه النوري.

إن نور الخط الإلهي إنما هو مجموع الأسماء والصفات التي يختص بها المولى تبارك ذكره ويفيض بها على من يصطفي من عباده بما يتناسب وشأنه، حتى يكون في دائرة (أدبني ربي فأحسن تأديبي)[2]، فإذا كان كذلك كان نافذة خير يطل من خلالها على روح الله سبحانه ورحمته المرجوّة لكل مخلوقٍ له تبارك ذكره، وبالتالي فكما أن مصدر الخير هو الله عز وجل أصبح أهل التقوى محلاً له على اعتبار اختيارهم للانضمام لركب الخط الإلهي الممتد من السماء، وبالمثل فإن الشر منهم مأمون لحقيقة أن الله تعالى لا يصدر عنه شر أصلاً.

بين الذكر والغفلة:

يمكن حمل المعنى في هذا المقطع من الموعظة الشريفة على محملين، الأول يعني بالبعدين القلبي واللساني للعبد، فإن كان لسانه غافلاً عن ذكر الله فإن قلبه لا يغفل أبداً، وهذا قوله

١- سورة المائدة ٥٥

٢- بحار الأنوار ج١٦ ص ٢١٠

عليه الصلاة والسلام (إن كان في الغافلين «أي غفلة اللسان» كتب في الذاكرين «لأن قلبه في حالة ذكر دائمة»).

أمّا إذا كان في الذاكرين بلسانه فإنه لا يكتب في الغافلين، و هذا يعني أنّ لسان الذاكر المتقي ترجمان حقيقي لما يريده فعلاً، فلا حضور للقلقة اللسان عنده.

أما الثاني فهو وجود المتقي في الحالة الأولى في مجلس للغافلين عن ذكر المولى تبارك وتعالى، وهنا يكون ذكره بالقلب دون اللسان فلا يسجل معهم، وفي الحالة الثانية فإن اللسان والقلب معاً يذكران الله كالحالة السابقة.

إنّ في قول أمير المؤمنين عليه السلام إشارة واضحة ومباشرة لأهمية الذكر في جميع الأحوال، وقد ينكشف الغطاء عن سر عظمة الذكر وآثاره الشامخة من قوله تعالى ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾[1]، فهل يعقل أن يترك أهل التقوى ذكر الله عز وجل فتفوت عليهم لحظة لا يذكرهم الله عز وجل فيها؟

نعم، إن أحببت أن يذكرك الله — وفي ذكره خير الدنيا والآخرة- فما عليك إلا أن تذكره بالقلب واللسان معاً.

١ـ سورة البقرة ١٥٢

(أهل التقوى ولين العريكة)

قوله عليه السلام:

« يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَ يُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ، وَ يَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ، بَعِيداً فُحْشُهُ، لَيِّناً قَوْلُهُ، غَائِباً مُنْكَرُهُ، حَاضِراً مَعْرُوفُهُ، مُقْبِلًا خَيْرُهُ، مُدْبِراً شَرُّهُ»

العفو:

إنّ كلمة العفو قد تكون خفيفة على اللسان، ولكنها في واقع الأمر تقفز بمن يحققها قفزة واسعة جداً نحو تهذيب النفس وتنقية القلب، وبالتالي تسهيل وتمهيد طريق الوصول إلى الواحد الديّان جلّ وعلا.

كما أن العفو عن المسيء والمذنب والمتعدي يفيد في ثلاثة جوانب، أما الجانب الأول فهو التقرب إلى الله تعالى لقوله: ﴿وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[1].

وعندما ننظر إلى الجانب الثاني فإننا نقف على أهمية العفو في المجال الدعوي، حيث إنه – وبلا خلاف– من مظاهر التواد والتلاحم، وهذا من أقوى ما يستنهض الإنسانية في المجتمع.

ثم أن العفو لا يعني بأي حال من الأحوال ضياع الحقوق، لأنه من الصالحات التي يقول المولى عز وجل في شأن مؤتيها ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾[2].

١- سورة البقرة ٢٣٧

٢- سورة القصص ٨

ويقول تعالى ﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[1] فالحق لا يضيع بالعفو وإنما يرجع مضاعفاً.

أما الجانب الثالث فهو جانب الانتصار على جميع الأصعدة لمن يعفو، وذلك لمخاطبة الفعل للنفس أولاً وأخيراً، ثم الخروج بنتيجة انتصار الخير على الشر وهو الانتصار الحقيقي الذي يدخل الفرح والسرور ليس على الفرد وحسب، وإنما على المجتمع ككل.

العطاء:

إنّ العطاء بشكلٍ عام وخصوصاً لمن تسبب في حرمان غيره هو كسابقه في مساحات تهذيب النفس، إلى أن يتحول فيكون ملكة تحرك الإنسان دائماً نحو فضيلة البذل دون النظر إلى الطرف المقابل.

ومن المهم هنا أن نشير إلى عمومية العطاء وعدم حصره في زاوية المال فقط، فالكلمة الطيبة عطاء، والزيارة عطاء، والدعاء للغير عطاء، وذكر الآخرين بالخير عطاء، وتاج العطاءات هو العمل الرسالي الذي لا يتوقف نبضه مادامت القدرة ولو في أبسط درجاته، وهكذا فإنّ كل ما يؤثر إيجاباً في نفوس العباد يعتبر عطاءً يثاب عليه المعطي بفضلٍ من الله تعالى.

إن العطاء بأنواعه يذيب أقسى وأشد أنواع العداوة والشحناء، وفي ذلك يقول عز وجل ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[2].

ومن هذا الباب قد نضم هنا قوله عليه السلام: (ويصل من قطعه)، فالتواصل من العطاء أيضاً.

إن التواصل مع عباد الله فيه من الفوائد والآثار ما لا يحصيه كتاب ولا يغنيه كاتب، كيف لا وقد فضلّه الله تعالى على الصدقة التي هي شريان المحبة والتآخي، ولنا أن نستدل على ذلك من قول الرسول صلى الله عليه وآله: «الصدقة بعشرة والقرض بثمانية عشر وصلة الأخوان بعشرين وصلة الرحم بأربعة وعشرين»[3] .

١- سورة الأنعام ١٦٠

٢- سورة فصلت ٣٤

٣- الكافي ج٢ ص١٠

والوصل في الأوضاع الطبيعية قد يكون أمراً اعتيادياً لا غرابة فيه، ولكن الجمالية تظهر إذا كان الوصل لقاطع الوصل، فهنا يتجلى سمو الأخلاق وأصالة المعدن، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

بُعد الفحش:

تظافرت الروايات والأحاديث الذامة للفحش سواء كان في قول أو فعل، وهذا هو الرسول الأعظم ﷺ يقول: «إن الفحش لو كان مثالاً لكان مثال سوء»[1] وقال أيضاً: «إياكم والفحش فإن الله لا يحب الفاحش المتفحش»[2]،

وقال أبوعبدالله عليه السلام: «إن الفحش والبذاء والسلاطة من النفاق»[3].

وبهذا يتضح أن الفحش إذا اتخذ مكاناً فإن الحق يكون أبعد ما يكون عنه، لذلك كان الفحش بعيداً كل البعد عن المتقي، فلا يصدر منه ولا يمر بمخيلته على الإطلاق.

لين القول:

اللسان هو أداة الاتصال الرئيسية بين البشر، فبه يفصح الإنسان عمّا بداخله ويوصل أفكاره وأطروحاته وما يدور في خلده لمن أراد من بني جنسه، ومن هنا جاءت أهمية كل كلمة ينطق بها اللسان، إلى أن قال أمير المؤمنين عليه السلام «المرء مخبوءٌ تحت لسانه، فزن كلامك واعرضه على العقل، فإن كان لله فتكلم به، وإن كان غير ذلك فالسكوت أولى»[4].

فأي لفظٍ يتلفظ به اللسان يجب أولاً وأخيراً أن يكون في مرضاة الله سبحانه وتعالى في أصله و أثره، ولا يخفى أنّ هذا اللسان قد يكون أشد وأقسى من أعظم الأسلحة الفتاكة، فيؤذي من يتعدى عليه ويترك في نفسه جرحاً قد لا تشفيه الليالي ولا تطيبه الأيام، فكم من كلمة كانت كالضربة التي قضت على أسرة بأكملها، وكم من لسانٍ تحرك فأشعل بشيطنته نيران الحروب المدمرة، وأعلا بجهله رايات القتال الهدامة.

١ـ الكافي ج٢ ص٣٢٤

٢ـ وسائل الشيعة ج٩ ص٤٢

٣ـ الكافي ج٢ ص٣٢٥

٤ـ مستدرك الوسائل ج٩ ص٢٢

بل حتى في تعامل الحق مع الباطل، كان من الواجب على الأول أن يبدأ طريق الدعوة مع الثاني باللين والسهولة، لذلك كان أمر الله سبحانه وتعالى لموسى (على نبينا وآله وعليه أفضل الصلاة والسلام) وأخيه عندما قال: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى* فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[1].

فبالرغم من طغيان فرعون جاء أمر الله لموسى وهارون بأن ينطلقا في دعوتها إليه من بوابة القول اللين، والذي هو أساس القول وروحه.

و قال أبوعبدالله عليه السلام: «ينبغي للمؤمن أن يكون فيه ثمان خصال، وقور عند الهزاهز، صبور عند البلاء، شكور عند الرخاء، قانع بما رزقه الله، لا يظلم الأعداء، ولا يتحامل للأصدقاء، بدنه منه في تعب، والناس منه في راحة، إن العلم خليل المؤمن، والحلم وزيره، والصبر أمير جنوده، والرفق أخوه، واللين والده»[2].

غياب المنكر:

المنكر خلاف المعروف، وكل ما قبَّحه العقل الشرع وحرَّمه فهو منكر، وغيابه هنا ليس بغياب الفعل وحسب، وإنما غياب الميل إليه، لقول الصادق عليه السلام: «حسب المؤمن عزاً إذا رأى المنكر، أن يعلم اللهُ من نيته أنه له كاره»[3].

وبهذه الصورة يكون البُعد عن المنكرات بدافع ملكة قد ترسخت في النفس بعد أن دخل صاحبها في رحلة استكشاف الحقائق، فأصبح وبصورة تلقائية يُقبِلُ على الصالحات والخيرات، وينفر بتقزز عن المنكرات والقبائح.

وقد زخر الكتاب العزيز بآيات بيّنات أوضحت لنا القبيح الذي يكسو ويستبطن المنكرات، مما أوجب علينا بأمر الله تعالى أن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، وفي هذا يقول المولى عز وجل: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[4].

١ـ سورة طه ٤٣ ـ ٤٤

٢ـ الكافي ج٢ ص٢٣٠

٣ـ عوالي اللالي ص١٩٠

٤ـ سورة آل عمران ١٠٤

وقال سبحانه ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

وقال جلَّت قدرته ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[٢].

فالمنكر بالنسبة لأهل التقوى كالقاذورات والأوساخ بالنسبة للإنسان العادي الذي يحافظ على نظافته وجمال مظهره.

حضور المعروف:

إذا غاب المنكر من النفس فإنه ينعدم من دائرة الأفعال، وبالتالي فإن الإنسان يكون أمام خيارين، أولهما أن يبقى في مجال الجمود، فيكون وجوده وعدمه واحد، وأما الثاني فهو التمسك بما يقابل المنكر من أفعال، وهي صريح (المعروف)، وبما أن أهل التقوى يبحثون دائماً عن رضا الله سبحانه وتعالى فإنهم يرتمون بدافع الحب والشوق في أحضان الصالحات وأعمال المعروف، فإن ضاق بك الحال ستجد الفسحة والعون عند أهل التقوى الذين لا يتوانون في إسداء الخير للآخرين إما بفعل مادي أو بكلمة طيبة ودعاء يعينان على مواجهة الصعاب.

إنّ المعروف يمثل باباً من أبواب استحصال الأجر العظيم من الله تعالى، لقوله ﴿لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾[٣].

كما أنه تبارك ذكره بيّن لنا المقام العالي لقول المعروف في قوله ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾[٤].

فغياب المنكر يصاحبه حضور المعروف، وبما أنه غائب عند أهل التقوى فإن المعروف حاضر عندهم دائماً بدوام غياب المنكر، الأمر الذي جعله سجية يتحلون بها فكانوا خير دعاة لدين الله الجميل في نفسه و أثره.

١- سورة التوبة ١١٢

٢- سورة لقمان ١٧

٣- سورة النساء ١١٤

٤- سورة البقرة ٢٦٣

إقبال الخير:

استعمل أمير المؤمنين عليه السلام لفظ (حاضراً) عندما تحدث عن المعروف، ولفظ (مقبلاً) عندما أراد الإشارة إلى الخير، فلماذا كان ذلك؟

يظهر بأن الخير قد يكون مستحصلاً عن طريق المعروف، فالمعروف يوجد عند أهل التقوى في كل وقت، وبه يكون إقبال الخير، فالهدف هو استنزال الخير بواسطة المعروف، لذلك كانت الواسطة متوفرة دائماً، وبها يحصل الخير.

وباتباع تسلسل كلمات الأمير، نرى أن غياب المنكر سبباً في إدبار الشر، فالثانيان ينتجان عملياً من الأوليين، مما يجعل العمل منصباً على تمكين المعروف من الحضور وطرد المنكر، فتكون النتيجة إقبال الخير وإدبار الشر.

وعلى أية حال، فإن الأمر هنا يبقى في حاجة عظيمة لشفافية التشخيص، فلا تكون الرؤية معكوسة بحيث يصبح المنكر معروفاً والمعروف منكراً، وللخلاص من الاشتباه والزلل نقول:

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وأرزقنا اجتنابه.

(طمأنينة المتقي بالثقة بالله تعالى)

قوله عليه السلام:

" فِي الزَّلَازِلِ وَقُورٌ، وَفِي الْمَكَارِهِ صَبُورٌ، وَ فِي الرَّخَاءِ شَكُورٌ، لَا يَحِيفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ، وَلَا يَأْثَمُ فِيمَنْ يُحِبُّ، يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ"

الثقة بالله:

إن كل القوى الموجودة في هذا الوجود بما فيها قوة الشيطان الرجيم لا تخرج عن قوة الله وقدرته بأي حال من الأحوال، فإنه سبحانه وتعالى لو أراد أن يشّل من حركة إبليس لكان ذلك منه جلت قدرته بين الكاف والنون، فكل خير وضر هو من الله العلي القدير، في حين أن كل شر هو من فعل الإنسان، لقوله تعالى ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

فالشر هو ناتج وليس بأصل، ويكون من جرّاء فعل الإنسان، وينبغي هنا أن نفرّق بين الضر والشر، فالشر كما أسلفنا هو بفعل الإنسان وربما عوقب به في هذه الدنيا لتعدي الفاعل على حدود الله تعالى.

أما الضر فهو في باطنه خير، في حين أننا نراه ضراً، وذلك لامتحان العبد والوقوف على قوة ثباته في تدينه والتزامه، وفي جميع الأحوال يكون الدافع والرافع للبلاء هو الله الواحد القهار، ويبقى الأمر متعلقاً بمدى عزم العبد على تغيير ما بنفسه من خبائث وموبقات، لأن الله تعالى يقول ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[2].

لذلك كان ثبوت أهل التقوى في الشدائد والأهوال، فهم يثقون في المولى تبارك ذكره حيث أن مقدرات الأمور بيده، إن شاء أنزل وإن شاء رفع.

١ـ سورة آل عمران ١٦٥

٢ـ سورة الرعد ١١

الصبر في المكاره:

يقول الله سبحانه وتعالى ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1].

إنّ سر النجاح والقدرة على تحمل المكاره يكمن في قوله عز وجل ﴿وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ»، فالعبد إذا أُقر بجهله و أودع ثقته كاملةً في الله سبحانه وتعالى، عَلِمَ أن ما يصيبه وما يعترضه من أمور الدنيا إنما مآله إلى خير بإذن الواحد الأحد، وكم من موقف كرهه إنسان وبعد أن انكشفت له بعض الحقائق تمنى لو كان باقٍ عليه لما وجد من خيره بعد أن كان ظاهره كريهاً لا يبشر بأي خير، وفي ذلك يقول سبحانه ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ الله لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[2].

أما في الجانب الآخر فإن المكاره كالمرض وفقدان الحبيب – مثلا– تكون في أحوال كثيرة كالصاقل لشخصية المؤمن إذا اتخذ من الصبر ثوباً ورداءً، فإنه بعد توالي الامتحانات وتعاقب المكاره عليه يصبح كالطود الشامخ لا يهمه إلا رضا الله تبارك وتعالى، لذا كان الصبر حلية للمتقين عند المكاره.

الشكر في الرخاء:

إن دوام الحال أمر محال، هكذا قالوا في قديم الأمثال. وكل خير يصيب الإنسان إنما هو بتفضل من الله الواحد القهار، فلو أن عبداً قضى عمره في سجدة واحدة شكراً لله تعالى لما تمكن من الوفاء بعشر معشار نعمة البصر – على سبيل المثال–، والدليل على ذلك أن من فقدها لا يتمكن أعظم الأطباء من إعادتها إليه إلا بإذن واهبها جلت قدرته.

والشاهد هو أننا لا نعمل –في واقع الحال– ما نستحق به الإنعام من الله تعالى، ولكنه جل شأنه يُبقي نعمه علينا بالرغم من عدم استحيائنا ومداومتنا على إسخاطه ومخالفة أوامره.

لهذا كان الشكر من العبد لله تعالى في البلاء فضلاً عن الرخاء هو واجب عقلي إنساني سلوكي تأدبي، لا ينفيه إلا قاسي القلب مريض النفس، فالحمد لله رب العالمين في الضراء قبل السراء.

١- سورة البقرة ٢١٦

٢- سورة النساء ٧٣

قوة العدل:

إن قوة العدل هي إحدى القوى الأربع الباعثة في نفس الإنسان، ولا يخفى أن استقامتها تعني الارتقاء بالمرء في طريق التكامل ومن ثم الوصول لله سبحانه وتعالى، وهذا لا يكون إلا بالإصرار على عدم الخروج عن حدوده تبارك ذكره.

فإنه سبحانه وتعالى ﴿ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1]، وقال سبحانه ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾[2].

ولكن واقع الحال أن هناك من يبغي على مبغِضه أو مبغِض أحبائه، وهذا ليس من التقوى في شيء، لقوله تعالى «وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾[3].

وحسبنا في هذا المقام خطبة أمير المؤمنين عليه السلام:

(والله ما دنياكم عندي إلا كسفر على منهل حلوا، إذ صاح بهم سائقهم فارتحلوا، ولا لذاذتها في عيني إلا كحميم أشربه غساقا، وعلقم أتجرعه زعاقا، وسم أفعاة أسقاه دهاقا، وقلادة من نار أوهقها خناقا.

ولقد رقعت مدرعتي هذه حتى استحييت من راقعها وقال لي: اقذف بها قذف الأتن لا يرتضيها ليراقعها.

فقلت له: اعزب عني فعند الصباح يحمد القوم السرى، وتنجلي عنا علالات الكرى، و لو شئت لتسربلت بالعبقري المنقوش من ديباجكم، ولأكلت لباب هذا البر بصدور دجاجكم، ولشربت الماء الزلال برقيق زجاجكم، ولكني أصدق الله جلت عظمته حيث يقول: ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَ هُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾، فكيف أستطيع الصبر على نار لو قذفت بشررة إلى الأرض لأحرقت نبتها، ولو اعتصمت نفس بقلة لأنضجها وهج النار في قلتها ؟ وإنما خير لعلي أن يكون عند ذي العرش مقرباً أو يكون في لظىً خسيئاً مبعداً مسخوطاً عليه بجرمه مكذباً، والله

١ـ سورة النحل ٩٠

٢ـ سورة النساء ٥٨

٣ـ سورة المائدة ٨

لأن أبيت على حسك السعدان مرقداً، وتحتي أطمار على سفاها ممدداً، أو أجر في أغلالي مصفداً أحب إلي من أن ألقى في القيامة محمداً خائناً في ذي يتمة أظلمه بفلسه متعمداً، ولم أظلم اليتيم وغير اليتيم لنفس تسرع إلى البلى قفولها، ويمتد في أطباق الثرى حلولها، وإن عاشت رويداً فبذي العرش نزولها.

معاشر شيعتي احذروا، فقد عضتكم الدنيا بأنيابها، تختطف منكم نفساً بعد نفسٍ كذئابها، وهذه مطايا الرحيل قد أنيخت لركابها، إلا أن الحديث ذو شجون، فلا يقولن قائلكم إن كلام علي متناقض؛ لأن الكلام عارض و لقد بلغني أن رجلاً من قطان المدائن تبع بعد الحنيفية علوجه، ولبس من نالة دهقانه منسوجة، و تضمخ بمسك هذه النوافج صباحه، وتبخر بعود الهند رواحه وحوله ريحان حديقة يشم تفاحه، وقد مد له مفروشات الروم على سرره..

تعساً له بعد ما ناهز السبعين من عمره وحوله شيخ يدب على أرضه من هرمه، وذا يتمه تضور من ضره ومن قرمه، فما واساهم بفاضلات من علقمه.

لئن أمكنني الله منه لأخضمنه خضم البر، ولأقيمن عليه حد المرتد، ولأضربنه الثمانين بعد حد، ولأسدن من جهله كل مسد.

تعسا له أفلا شعر، أفلا صوف، أفلا وبر، أفلا رغيف، قفار الليل إفطار مقدم، أفلا عبرة على خد في ظلمة ليالي تنحدر ولو كان مؤمناً لاتسقت له الحجة إذا ضيع ما لا يملك!!

والله لقد رأيت عقيلاً أخي و قد أملق حتى استماحني من بركم صاعة، وعاودني في عشر وسق من شعيركم يطعمه جياعه، ويكاد يلوي ثالث أيامه خامصاً ما استطاعه، ورأيت أطفاله شعث الألوان من ضرهم كأنما اشمأزت وجوههم من قرهم، فلما عاودني في قوله وكرره أصغيت إليه سمعي فغره، وظنني أوتغ ديني فأتبع ما سره. أحميت له حديدة ينزجر إذ لا يستطيع منها دنواً ولا يصبر، ثم أدنيتها من جسمه فضج من ألمه ضجيج ذي دنفٍ يئن من سقمه، وكاد يسبني سفهاً من كظمه ولحرقة في لظى أضنى له من عدمه.

فقلت له: ثكلتك الثواكل يا عقيل، أتئن من حديدة أحماها إنسانها لمدعبه، وتجرني إلى نار سجرها جبارها من غضبه؟

أتئن من الأذى ولا أئن من لظى؟

والله لو سقطت المكافاة عن الأمم، وتركت في مضاجعها باليات في الرمم لاستحييت).[1]

١- - الأمالي – الشيخ الصدوق – ص٧١٨

الاعتراف بالحق:

الإعتراف بالحق أمرٌ محمود بلا شك، ولكنه يكون فضيلة ومدعاة للإشارة بالبنان إذا كان اعترافاً على النفس بخطأ قد اقترفته، ولكن حذار من الخلط بين فضح النفس التي ستر الله سرها وبين الاعتراف عليها في موارد الاعتراف الشُجاعة، فالذنب إن كان بين العبد وربه فالكافي -إن شاء الله- أن يكون الاعتراف في النفس والاعتراف لله وهو الأعلم بما تخفيه، ولكن الأمر لو كان بين إنسان وآخر، أو بينه وبين أطراف متعددة فإن الإنكار قد يتسبب في ضياع حقوق وإنزال الضرر بالغير، كما أنه — الإنكار- ربما يتبين بطلانه بعد حين، فتكون الفضيحة فضيحتين، لذلك كان الاعتراف في هذه المقامات يمثل أجمل صور الشجاعة من المعِتَرِف بشرط أن تكون بين توبة تسبقها وأخرى تلحقها.

والحقيقة أن الإنسان يخشى الاعتراف لأنه يهاب الافتضاح، فيبقى في خوف مستمر، لهذا جاءنا أمير المؤمنين عليه السلام بالحل الحيدري في قوله: (إذا هبت أمراً فقع فيه، فإن شدة توقيه أعظم مما تخاف منه)[1].

فالإعتراف قد يطفئ نيراناً ربما أحرقت بتأججها أناساً لا ناقة لهم في الأمر ولا جملاً.

لذلك كانت المبادرة بالاعتراف سمة للمتقين الذين هم في الأصل لا يصدر منهم ما يوجب الاعتراف إلا بسهوٍ غير مقصود يقضون أعمارهم في الاستغفار منه.

١ـ بحار الأنوار ج٦٨ ص٣٦٢

(تسامي روح المتقي بعدم خوضه في الباطل)

قوله عليه السلام:

« لَا يُضِيعُ مَا اسْتُحْفِظَ، وَ لَا يَنْسَى مَا ذُكِّرَ، وَ لَا يُنَابِزُ بِالْأَلْقَابِ، وَ لَا يُضَارُّ بِالْجَارِ، وَ لَا يَشْمَتُ بِالْمَصَائِبِ، وَ لَا يَدْخُلُ فِي الْبَاطِلِ وَ لَا يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ»

حفظ الأمانة:

يقول الله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾[1].

وقال جل وعلا ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾[2].

وعن الحسين الشيباني عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قلت له: رجل من مواليك يستحل مال بني أمية ودماءهم وأنه وقع لهم عنده وديعة. فقال عليه الصلاة والسلام: (أدوا الأمانات إلى أهلها وإن كانوا مجوساً)[3].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: (. . . . . . فاتقوا الله وأدوا الأمانات إلى الأسود والأبيض وإن كان حرورياً وإن كان شاميا)[4] .

إنّ صفة الأمانة من الصفات الإنسانية الأصيلة، ولا يخفى أنه وحتى قبل الإسلام كان هناك من يشتهر بهذه الصفة مما يحدو قومه ليصيروه أميناً على أموالهم، كقسم الودائع في

١- سورة النساء ٥٨

٢- سورة المؤمنون ٨

٣- الكافي ج٥ ص ١٣٢-١٣٣

٤- الكافي ج٨ ص٢٣٦

المصارف (البنوك) في زماننا هذا، فالأمين يعني أنه يكون محطاً لثقة الناس، كما كان الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله حتى سمي بالصادق الأمين.

أدرك المتقون معنى الأمانة ومدى أهمية حفظها امتثالاً لأمر الله جلَّت قدرته أولاً، ومن ثم لما لها من انعكاسات إيجابية على تعميق أواصر الترابط بين أفراد المجتمع الواحد، حيث أنّ الاستقرار نتيجة طبيعية لانبساط الثقة بين الناس، لذلك كانوا لا يضيعون ما استُحفِظوا.

النسيان آفة:

في وصية للرسول صلى الله عليه وآله لأمير المؤمنين عليه السلام قال «آفة العلم النسيان»[1] .

قد نناقش موضوع النسيان والموارد التي يكون فيها نعمة من الباري اللطيف الخبير، ولكننا لن نختلف إذا ما وصلنا إلى ساحة العلم النافع، وقلنا أنّ النسيان فيه كدودة الشجر التي تبقي على الشجرة خضراء ولكن دون ثمار نافعة، فالنسيان هنا هو بالفعل آفة.

وللنسيان أكثر من سبب، أهمها عدم المعرفة الحقة بفائدة مالا يجب نسيانه، ولذلك لا يكون الإنسان متوجهاً بكله وإنما بما يغني المقام فقط، كما أن عدو النسيان المداومة على الاستذكار وكثرة التعوذ من الشيطان الرجيم.

وقد جاء في القرآن الكريم من الآيات في ذم نسيان أنواع الزاد للآخرة ما يغني تائقة كل مشتاق لملاقاة الخير في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من جاء بقلب ذاكرٍ واعٍ لحقيقة الأمور.

فقد قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾[2] .

وقال سبحانه في بيان الضرر الحاصل من النسيان: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[3] .

١- من لايحضره الفقيه ج٤ ص٣٧١

٢- سورة البقرة ١٥٢

٣- سورة المائدة ١٣

وقال عز وجل: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[١] .

تظهر لنا من خلال آيات القرآن العظيم أهمية استحضار كل ما يحافظ علينا وعلى بقائنا في روضة الإيمان، ولا يكون ذلك –كما أسلفنا– إلا بالدأب على الارتقاء في دنيا الحقائق لنفهم أنّ النسيان قد يوردنا المهالك والعياذ بالله.

النبز:

التنابز هو التداعي بالألقاب وهو يكثر فيما كان ذماً، أما فاعله فإنه يخالف النهي الصريح في قوله تعالى ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾[٢].

كما أن التنابز يخرج فاعله من الجمالية الأخلاقية لأهل الإيمان والتقوى، حيث أنّ صفة التنابز بالألقاب ليست من الأخلاق، بل هي مخالفة للمستحب وهو أن يكني المؤمنون بعضهم بعضاً، لما في ذلك من حلاوة ولطف.

حق الجار:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«هَلْ تَدْرُونَ مَا حَقُّ الْجَارِ؟

مَا تَدْرُونَ مِنْ حَقِّ الْجَارِ إِلَّا قَلِيلًا، أَلَا لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ، فَإِذَا اسْتَقْرَضَهُ أَنْ يُقْرِضَهُ، وَإِذَا أَصَابَهُ خَيْرٌ هَنَّأَهُ، وَإِذَا أَصَابَهُ شَرٌّ عَزَّاهُ.

لَا يَسْتَطِيلُ عَلَيْهِ فِي الْبِنَاءِ يَحْجُبُ عَنْهُ الرِّيحَ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَإِذَا اشْتَرَى فَاكِهَةً فَلْيُهْدِ لَهُ، فَإِنْ لَمْ يُهْدِ لَهُ فَلْيُدْخِلْهَا سِرّاً، وَلَا يُعْطِي صِبْيَانَهُ مِنْهَا شَيْئاً يُغَايِظُونَ صِبْيَانَهُ.

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: الْجِيرَانُ ثَلَاثَةٌ، فَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ ثَلَاثَةُ حُقُوقٍ: حَقُّ الْإِسْلَامِ، وَحَقُّ

١ـ سورة الانعام ٤٤

٢ـ سورة الحجرات ١١

الْجِوَارِ، وَحَقُّ الْقَرَابَةِ. وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ حَقَّانِ: حَقُّ الْإِسْلَامِ، وَحَقُّ الْجِوَارِ. وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ: الْكَافِرُ لَهُ حَقُّ الْجِوَارِ»[1].

إن في هذا الحق من الخير ما من شأنه أن يجعل الأمة بأسرها تحيا كأسرة واحدة، وهذا — قطعاً– من البر والتقوى لما فيه من رضا لله سبحانه وتعالى.

الشماتة:

قال الإمام الصادق عليه السلام: «لا تبدي الشماتة لأخيك فيرحمه الله ويصيرها بك»، وقال: «من شمت بمصيبة نزلت بأخيه لم يخرج من الدنيا حتى يفتتن»[2].

وقال الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: «وأما علامة الحاسد فأربعة، الغيبة والتملق والشماتة بالمصيبة»[3].

إنّ الإسلام يأمرنا بحب بعضنا البعض وعدم التعدي على الآخرين بأي شكل إلا بالحق الذي فيه رضا الله سبحانه وتعالى، فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «فإنهم صنفان (يقصد الناس) إما أخ لك في الدين وإما نظير لك في الخلق»[4].

ومن المعلوم أن الشماتة لا تكون بين الأحباء، وأهل التقوى يحبون جميع الناس ما لم يكن بغضاً في الله تعالى، فصار من الطبيعي ألا يخطر على بال أحدهم أن يشمت بأحد إذا كان في بلاء أو مصيبة، حيث أنّ الشماتة إن دلت فإنها تدل على الكره والجهل، وهذا أبعد ما يكون عن جنة التقوى.

ومن ناحية أخرى فإن هذه الدنيا كالدولاب الذي لا يستقر على حال أبداً، فلا الذي ملك وسيطر بقى على حاله ولا الذي قُهِرَ واستضعِفَ تسرمد وضعه، فهذا هو بلعم بن باعورا انقلب على عقبيه حتى بات من أشقى الأشقياء، وذاك فرعون يلعنه اللاعنون بعد أن كان مهيمناً على ملاين البشر، وفي المقابل تجد بأن مذهب أهل البيت عليهم السلام آخذ بالتسامي ساعة تلو الأخرى بعد أن عانى الأمرّين منذ استشهاد الرسول صلى الله عليه وآله، فالذي يشمت بمن أصابه بلاء

١- مستدرك الوسائل ج٨ ص٤٢٤

٢- الكافي ج٢ ص٣٥٩

٣- بحار الأنوار ج١ ص١٢١

٤- مستدرك الوسائل ج١٣ ص١٦٠

سوف يأتي اليوم الذي تتغير فيه المواقع وتتبدل فيه المناصب، فحذارِ من الشماتة والتفشي، والله الله في كثرة الحمد والثناء على الباري تبارك وتعالى.

الحق والباطل:

قال الإمام الصادق عليه السلام : (إنما المؤمن الذي إذا غضب لم يخرجه غضبه من حق، وإذا رضي لم يدخله رضاه في باطل، وإذا قدر لم يأخذ أكثر مما له)[1].

إنّ الخروج من الحق والدخول في الباطل إنما يكون بسبب اتباع الشهوات أو تسليم العقل لقيادة القوة الغضبية، أما الدخول في الباطل فهو بسبب نسيان الله سبحانه وتعالى.

ومن هنا صار الأمان من الوقوع في أحد هذين المطبّين أو كليهما مربوط بمدى الالتزام والثبات على خطى الشجاعة والعفة.

فمن يتمكن من ترويض نفسه على القوى الأخلاقية الأربع والتي أشرنا إليها مسبقاً فإنه يكون قد خطى بثبات نحو الدخول في رياض المتقين، فيصبح كما هُم، لا يدخل في باطل ولا يخرج عن حق.

١- الكافي ج٢ ص٢٣٣

(الصمت و السكينة في نفوس المتقين)

قوله عليه السلام :

"إِنْ صَمَتَ لَمْ يَغُمَّهُ صَمْتُهُ، وَإِنْ ضَحِكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُهُ، وَإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ، نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاءٍ وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ، أَتْعَبَ نَفْسَهُ لِآخِرَتِهِ وَأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ"

الاقتصاد في الكلام:

قال الإمام الرضا عليه السلام : «من علامات الفقه الحلم والعلم والصمت، إن الصمت باب من أبواب الحكمة، إن الصمت يكسب المحبة، إنه دليل على كل خير»[1].

وقال الإمام الصادق عليه السلام : «أكثر خطايا بن آدم من لسانه»[2].

إن ما بداخل الإنسان من فكر وخواطر تبقى مخبوءة مستورة مادام اللسان لا يفصح عنها، وبمجرد أن يتحرك ويبدأ في سطر ألوان الحروف والألفاظ، يأخذ الستار في الارتفاع لينكشف ما كان مخبوءاً، فإما أن يكون فيه رضا لله سبحانه وتعالى ولمن يستمع الأجر والثواب، وإما أن يكون فيه رضا لله والسخط لمن يستمع، أو العكس، أو أن يكون الغضب والسخط للجهتين.

أما الأول فهو الذي قال عنه نبي الله عيسى (على نبينا وآله وعليه أفضل الصلاة والسلام) عندما سأله تلامذته أن يدلهم على عمل يدخلون به الجنة فقال: «لا تنطقوا أبداً، فقالوا: لا نستطيع ذلك . قال: فلا تنطقوا إلا بخير»[3] .

١- الكافي ج٢ ص١١٣

٢- شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج١٠ ص١٣٧

٣- شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج١٠ ص١٣٧

في حين أن الثاني يحتاج لتأمل، من حيث أن إسخاط المستمع هل سيعود على الدين بخير؟ أم أن العكس هو الذي سوف يحصل؟

فالفعل هنا يعتمد على إجابة هذا السؤال، لأن العمل على استحصال الخير للدين والأمة هو المبتغى، ولكن الفعل في حال رجحان الفرضية الثانية يعتبر من الحماقة، ولا حاجة لنا في الحديث عن الثالث والرابع..

من هنا كان من الحكمة أن يصمت العاقل إذا انتفت الجدوى من الحديث، والمؤسف أن البعض يصابون بنوبة من الضيق والغم وتقلب المزاج إذا التزموا الصمت، وهؤلاء قد ودّعوا الحكمة وامتطوا الأهواء والعصبية، فكان سعيهم كمن أراد أن ينقذ فرداً فأهلك بجهله أفراداً، أو كالذي أراد

الاتزان:

قال أمير المؤمنين عليه السلام: (كان ضحك النبي صلى الله عليه وآله التبسم، فاجتاز ذات يوم بفتية من الأنصار وإذا هم يتحدثون ويضحكون ملء أفواههم، فقال: مَه يا هؤلاء، من غرَّه منكم أمله، وقصر به في الخير عمله، فليطلع القبور وليعتبر بالنشور، واذكروا الموت فإنه هادم اللذات)[1].

قد يظن السطحيون بأن الإسلام دين النكد والحزن لأنهم لا يفقهون معنى تذكر الموت، إن الموت هو كما قال الرسول صلى الله عليه وآله عنه: (هادم اللذات) وهذا يعني أنه محيي للقلوب، وما أكثر حاجتنا لإحياء قلوبنا.

إن الإنسان العاقل يجب أن يعيش بين نعمة الوجود وحقيقة الموت، لما في ذلك من تحقيق للاتزان المطلوب، فالفرح لا إشكال فيه، ولكن المشكل إذا ذهب بالعقول وطال الأمل فكان الانعكاس ظاهراً على سلوك الفرد، فتراه يخرج عن حد الاتزان في حالتي الفرح والحزن، مما يتسبب بصورة مباشرة في إماتة القلب كما قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله (كثرة الضحك تميت القلب)، وقال: (كثرة الضحك تميت الدين كما يميت الماء الملح)[2].

١- وسائل الشيعة ج١٢ ص١١٩

٢- الكافي ج٢ ص٦٦٤

الاحتساب:

إذا اتقى المرءُ الله وراقبه في كل حركاته وسكناته كان مخالفاً لاعوجاج الدنيا وأهلها الذين تسلطوا ببغيهم على خيرات الأرض، وباتوا يتحكمون في مصائر الشعوب ومستقبلهم، وبطبيعة الحال فإنهم ومن سكن في قلوبهم الحسد لا يقبلون من يبصّرهم على حقيقة أعمالهم أو يوجه لهم النصح، فهم يعملون بكل جد ومثابرة لوضع العراقيل في طريقه والتعدي عليه بتشويه سمعته والنيل من شخصه بشتى أنواع الخطط الشيطانية و التدابير الإبليسية.

وهم بأفعالهم يحاولون جرّه للوقوع في زلة أو ذنب ليكثروا فيه الطعن، ولكن هيهات لهم ذلك مع أهل التقى والورع، فإنهم صابرون محتسبون منتظرون لنصر الله سبحانه وتعالى الذي أمر رسوله ﷺ فقال: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىَ يَحْكُمَ اللّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾[1]، وقال سبحانه ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[2].

العناء والراحة:

إن الإنسان ليتعب في سبيل استحصال الرزق الذي يستغني به عن الناس، فيحيا بذلك حياةً كريمة بفضل الجهد الذي يبذله في طريق الوصول لتلك الغاية، وبالمثل يكون العمل لبلوغ جناتٍ عرضها السموات والأرض أُعدت للمتقين.

فالجنة لا يبلغها أهل النوم والتخمة والكسل، والفوز بها يحتاج لصوم وقيام وذكر وهجر للشهوات، وفي كل ذلك عناء كبير، ولكنه يهون يوم يمر طيف الجنة من نعيم على خاطر الطالب للوصول، فيكون هذا العناء أحلى من الشهد وأعذب من الماء الزلال.

ثم أن الإنسان إذا وضع قدماً على أول درجة من درجات العروج إلى الله سبحانه وتعالى تصبح حاجاته في هذه الدنيا خفيفة لا تضنيه، وبالتالي فهو مع كل اتصال له مع الله جل وعلا يفك قيداً من القيود التي تعلقه بهذه الدنيا الفانية، والنتيجة أنه يتعامل مع الناس في حدود ضيّقة يبقى من خلالها كالزائر الخفيف الذي إن جاءهم استبشروا ببشاشة وجهه، وإن غادرهم اشتاقوا لدماثة خلقه، لذلك فإن نفس المتقي منه في عناء والناس منه في راحة.

١- سورة يونس ١٠٩

٢- سورة النحل ١٢٧

(القرب والبعد عن الخلق في الله ولله سبحانه)

قوله عليه السلام:

« بُعْدُهُ عَمَّنْ تبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَ نزَاهَةٌ، وَدُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِينٌ وَرَحْمَةٌ، لَيْسَ تبَاعُدُهُ بِكِبْرٍ وَعَظَمَةٍ، وَلَا دُنُوُّهُ بِمَكْرٍ وَخَدِيعَةٍ»

التباعد والمخالطة:

قال الإمام الباقر عليه السلام: «لا تخاصموا الناس فإن الناس لو استطاعوا أن يحبونا لأحبونا»[1].

يتعرض الإنسان في تعامله مع الناس إلى تحولات في مزاجهم وطباعهم، فقد لا يروق حاله لبعضهم فتراهم يبتعدون عنه شيئاً فشيئاً، وهو في هذه الحال يحاول أولاً أن يتقرب منهم، ولكنه إذا وجد الصد منهم والهجران فإنه وبزهده في هذه الدنيا وما تنطوي عليه من علاقات ومعاملات يبتعد عنهم تجنباً منه لأي تصادم قد ينجم معهم، فيشتغل بذكر الله سبحانه وتعالى، فتباعده لا تكتنفه ذرة من كبر أو إحساس بالأفضلية والعظمة، وإنما هو لوجه الله سبحانه وتعالى.

وكما كان ذلك فإن هناك من يدنو منه ويقترب، وهو بدوره يبادلهم نفس الشعور والفعل، لا لحاجة له عندهم ولا لنية مكر يبيتها لهم، وإنما تطبيقاً لقول الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: «لا تزال أمتي بخير ما تحابوا وتهادوا وأدوا الأمانة واجتنبوا الحرام وقرّوا الضيف وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، فإذا لم يفعلوا ذلك ابتلوا بالقحط والسنين»[2].

١ـ وسائل الشيعة ج١٦ ص١٩١

٢ـ وسائل الشيعة ج١٥ ص٢٥٤

كلمة الكتاب

ماذا بعد؟

هانحن قد طوينا سطوراً وصفحات مع كلمات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في وصف المؤمنين من أهل التقوى والورع استجابة لسؤال عابد متنسك اسمه همَّام —كما عرفت–، ولكنك قد لا تدري بأن همَّام هذا ومع بلوغ الإمام عليه السلام مقطع:

« بُعْدُهُ عَمَّنْ تبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَ نَزَاهَةٌ وَدُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِينٌ وَرَحْمَةٌ، لَيْسَ تبَاعُدُهُ بِكِبْرٍ وَعَظَمَةٍ، وَلَا دُنُوُّهُ بِمَكْرٍ وَخَدِيعَةٍ»

صنعت فيه بلاغة الموعظة صنيعها فصعق وخر ميتاً!!

نعم، انتعش قلب همَّام انتعاشاً أحياه حياة ما رأى لها من مثيل، وبانتعاش قلبه خر جسده وكأنه أطلق سراح الروح لتحلق في عالم السماء وأفق الأسماء والصفات، وهي الحياة الحقيقية..

في هذه اللحظة نحن نودع جسد الكتاب لنستقبل حياة الموعظة فننطلق إلى روح دولة إمامنا وقائدنا المهدي بن الحسن (أرواحنا لتراب مقدم خدامه الفداء)، لذا فإن دعوة هذه السطور الأخيرة أن نبدأ معاً في البحث الدقيق عن قوله تعالى ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً﴾، وعن قوله ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾، وعن قوله ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً﴾ ففيها بإذن الله عز وجل الفرج الحق لنا بظهور القائم المظفر إمامنا المهدي المنتظر (عجل اللهم فرجه الشريف).

إننا اليوم في مرحلة البناء لدولة الحق المهدوية، فإما أن نعي حجم المسؤولية فنعطي نواصينا لموعظة أمير المؤمنين عليه السلام ، وإلا فلا يبعد أن نرى أنفسنا مع أولئك الذين يعرض عنهم المولى بوجهه وجه النور —والعياذ بالله–...

فأي الطريقين نختار؟

محمد علي العلوي

المنامة – البحرين

فهرس الكتاب

المقدمة ٧

نص الموعظة.. ٩

تمهيد ١٣

(نجاح المشروع الرسالي يشترط استهلاله بذكر الله والثناء عليه) ٢١

(بداية الرحلة باستذكار توحيد الله وغناه المطلق)........................ ٢٧

(الأسس العامة لأهل التقوى) ٣١

(كيف يكون السمع والبصر وارثَين للمتقين؟)........................ ٤٥

(لا يجزعون ولا يمنعون) ٥٣

(الأرواح الوالهة بحبها والوجِلة بخوفها) ٥٧

(عظمة الخالق بأعين المتقين تكشف لهم الغطاء) ٦١

(صفات المتقين قلباً وقالباً) ٦٩

(الصبرُ على أيامٍ قليلة تتبعها راحةٌ طويلة) ٧٩

(الأتقياء في عروجٍ متسقٍ لله ليلاً ونهاراً) ٨٥

(استصغار الأعمال الحسنة لتجنب العُجب) ٩٣

(إثنتا عشر علامة تحدد هوية المتقين) ٩٥

(مساءٌ وصباح ملؤهما الشكر والذكر) ١١٣

(المتقي ما بين الحذر و الأمل) ١١٩

(قرة عين المتقي في مخالفة النفس الأمارة) ١٢٣

(الصفات الملائكية التي يتصف بها المتقون) ١٢٩

(علاقة المتقين بمن حولهم) ١٣٥

(أهل التقوى ولين العريكة) ١٣٧

(طمأنينة المتقي بالثقة بالله تعالى) ١٤٣

(تسامي روح المتقي بعدم خوضه في الباطل) ١٤٩

(الصمت و السكينة في نفوس المتقين) ١٥٥

(القرب والبعد عن الخلق في الله ولله سبحانه) ١٥٩

كلمة الكتاب ١٦١



للمؤلف:

- الغناء وتحديد المصير
- آه ياشهر رمضان
- رسالة الإصلاح من كربلاء
- تأملات واسقاطات قرآنية
- المحاور الأصيلة لنهضة إسلامية جليلة
- منة الرحمن في شهر رمضان
- وصايا لقمان لمن أراد الجنان
- المستخلص (خلاصة الحلقة الأولى من دروس أصول الفقه للشهيد الصدر "قدس سره")
- ضمير الشعائر
- حوار عقائدي
- القرار .. أكمل الفراغ
- نحو روح عالمية
- حروف التقوى (بين يديك)
- محورية المسجد في العمل الرسالي (قيد التحضير للطباعة)
- إحداث التغيير.. استلهامات من حديث أشراط الساعة (قيد التحضير للطباعة)
- ليس منَّا .. قائمة الضياع (قيد التحضير للطباعة)
- عين الحقيقة .. رؤى وحلول

للتواصل مع المؤلف

الموقع الالكتروني:www.alghadeer-voice.com /alawi

البريد الالكتروني: al_alawi14@live.com



كتاب حروف التقوى

من إصدارات حوزة خاتم الأنبياء (صلى الله عليه وآله) العلمية - محافظة المحرق

الموقع الالكتروني: http: //alkhatam.org

تصميم وإخراج : البروج ميديا هاتف : ١٧٦٩٤٢٧١ ٩٧٣+ ٣٦٦١١٨٦٥ ٩٧٣+

www.albrooj.net - info@albrooj.net